رواية:

حكايةُ الرصاصِ...

عبد الله محمد القرارعة

"تتحققُ الغاياتُ ما دامَ وراءَها نفوسٌ تَرْمقُ الأفقَ البعيد"

(1)

جمع الصيف ما تبقّى من بيادره التي شغلت أهالي "صِنِفْحَة" خلال أشهر مضت، ,وآذنت رياح الخريف بإقبال موسم الشتاء الذي يترقبه المزارعون بشغف وإشفاق، فحياتهم مرهونة بهذا الشتاء وتساقط المطر، إذ تتلقفه الأرض فتبتسم لهم عن قمح وعدس وشعير وزيتون، تقوم بها أصلابهم، وترتاح بها نفوسهم.

"صِنِفْحَة" هذه القرية الوادعة التي تتمدَّد على سفوحِ جبال جنوب الأردن، تطلُّ بكل هيبتها على غوره، وتمد عينيها إلى تلك البقعة الجميلة من أرض فلسطين في الخليل وما جاورها، تضم بين جناحيها مجموعة من العشائر التي تكاتفت وتشاركت مع بعضها للوقوف في وجه الحياة، وتدبير شؤونها في زمن تراجعت فيه سلطة الدولة بعد انتهاء مملكة فيصل ابن الشريف حسين، فنحن الآن في عام ألف وتسع مائة وعشرين، وقد أخذت العشائر والقبائل الأردنية تتماسك وتتعاضد لخلق كيان اجتماعي متماسك في وجه هذا الفراغ السياسي الذي تتحكم به العادات والقيم الاجتماعية وفي بعض الأحيان سلطة الأقوى، فكان من الطبيعي جداً أن تتماسك وتتكاتف هذه العشائر، ومن بينها عشيرة "العرارفة" الذين يؤثثون بعضاً من ذلك الفضاء الاجتماعي في تلك القرية.

الحاج مفلح – أبو أحمد – هو أحد كبار عشيرة العرارفة، بل هو أحد كبار تلك العشائر في صِنِفْحَة عموماً، يحمل على عاتقه بعضاً من هموم القرية من جهة، وهموم عائلته من جهة أخرى، في ذلك الحين لم تكن تلك الهموم أبعد من تأمين المأكل والملبس، ومنح العشيرة شيئاً من الأمان بقوة سواعد شبابها وفتيانها أمثال أحمد وفلاح وعلي وسليمان ومفضّي وغيرهم من شباب تلك القرية، فالقرية تتحزّم بفتوتهم وشبابهم في مواجهة الصعاب، والوقوف في وجه غزوات بعض العشائر على بعض بقصد الحصول على الطعام أو الماء أو الكلأ لمواشيهم.

لم تكن تلك القساوة والشدة التي كان يعيشها أهالي قرية صِنِفْحَة خصوصاً، وجنوب الأردن عموماً لتمنعهم من حياتهم الإنسانية المفعمة بالأمل، والممزوجة بالطموح، والناظرة إلى هذا الواقع على أنه مرحلة زمنية ولا بد أن تنتهي يوماً ما، وإن هذه الحياة مستمرة رغم ما فيها من الصعاب، هذه القناعة التي ترسخت في أذهان أولئك القوم دفعتهم للسير قدماً في حياتهم الطبيعية الإنسانية، فنجدهم يتسامرون ويضحكون، ويتحدثون عن غرائب القصص والأخبار، وتتهلّل وجوههم بشراً عند ولادة مولود، ويرقصون طرباً عند زواج أحد شبانهم، فالفرح والأمل لا يغادران سرائرهم، والرِّضا بواقع حياتهم يدفعهم لِتَقَبُّل الواقع بكل ما فيه.

توارى الصيف شيئاً فشيئاً خلف رياح الخريف المقبلة، وانطلقت في الجو بقايا القش والتبن التي لم يستطع الجامعون جمعها، وأوصدت البيوت الطينية أبوابها على

مؤونة الشتاء المقبل، واشرأبّتْ أعناق الشباب العُزّاب إلى الزواج، فقد جرت العادة أن يتزوج في عقب كل موسم عدد من هؤلاء الشبان، إذ تنتهي أعمال الفلاحة والزراعة بنهاية الصيف، وتكون المؤونة حاضرة لدى الأسر، ويكون رب الأسرة قد جمع شيئاً من المال لزواج ابنه، أما المسكن... فالبيت الكبير يضمّ الجميع، ولكل زوج مسطبته الخاصة به ولزوجته، هذا هو المكان الوحيد الذي لا يشاركهم به أحد، وما سوى ذلك فمشترك بين أفراد الأسرة كلها.

يجرّ أحمد خطواته المثقلة بالإرهاق والتعب بعد يومٍ شاق من جمع الحبوب والتبن وتعبئتها في أكياس الخيش عند البيدر، ويلتقط أنفاسه المتعبة وهو في طريقه إلى البيت، فيلتقيه مفضّي وهو لا يقل تعباً عنه، ويبادره بالتحية:

ـ مسيك بالخير.

ـ مسا النور.

ـ الله يعطيك العافية.

يُلقي أحمد كيساً صغيراً من القش على الأرض كان فوق كتفه، ويلتقط أنفاسه المتعبة، ويوقف خطواته أمام مفضّي، ويتابع:

ـ الله يعافيك... وين رايح.

ـ والله رايح على بيت أبو خلف، مطهّر ابنه، ورايح أتحلّى عنده.

ـ ما أسرع الزمن، والله حاس إنو أبو خلف اجّوَّز امبارح، صار عنده ولد، وبِدّه يِطهّره.

يطلق مفضّي ضحكة متوسطة في الهواء، ثم يربت على كتف أحمد، ويختم تلك الضحكة بشيء من الكحة التي يظهر للسامع أنها قطعت عليه ضحكته تلك:

ـ الحسافة عليّ أنا واياك، لا تجوزنا ولا ما يحزنون.

ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجه أحمد، وتابع:

ـ وإنت ليه ما تتجوز، وش ماسكك.

ـ ماني لاقي.

ـ كل هالبنات في صِنِفْحَة مني عاجباتك؟!

ـ أنا ما رح أتجوّز إلا بنية بتقول للقمر طيح وأنا بطلع مكانك.

ـ عليش... وش اللي يميزك عن هالشباب في القرية.

ـ ولا شي.

ثم تابع مفضّي عبارته بضحكة جديدة، وشاركه أحمد الضحك، وكأن سخرية مفضّي تلك لاقت قبولاً عندهما، في تلك اللحظة أطلّتْ مليحة آتية من نبع الماء، تحمل قربة الماء وتسير الهوينى على بعد بضع خطوات من أحمد ومفضّي، مليحة رثّة الثياب، قبيحة الهيئة، ترتسم على وجهها مسحة من الجمال، ولكن الشمس قد لفحته فزادته اسمراراً لا يناسب الستة عشر ربيعاً التي مضت من عمرها، وخشونة العيش وشظفه فعلت فعلتها بكفيها، فهما مخشوشنتان ومشققتان، لم تُعطَ فرصة للعناية

بنفسها أو حتى الاهتمام بمظهرها، ذلك المنظر هو الذي أوقف الشابين عن الضحك، وبدا كأنهما يريان مليحة للمرة الأولى، رغم أنهما يعرفانها جيداً، فقال أحمد:

ـ هاي هي... يالله يا مفضّي جتك.

ما كاد مفضّي ينهي ضحكته الأولى، حتى انخرط في نوبة ضحك ثانية بعد عبارة أحمد، وتابع بعد أن تماسك:

ـ فعلاً هاي هي الفرصة.

التفتت مليحة للشابين اللذين تعرفهما جيداً، فأومأت بعينيها إماءة توحي باستهجان موقفهما، وأمالت فمها مشيرة لهما بقدر غير يسير من الغضب، ولكنها لم تنبس ببنت شفة، بل تابعت مسيرها وأشاحت بوجهها عنهما، وبعد أن ابتعدت بضع خطوات، وصارت أذناها لا تلقطان كلامهما، قال أحمد:

ـ والله ما فيها من الجمال غير اسمها... مليحة.

ـ (اسم على مسمّى).

ثم اختتم أحمد ومفضّي وقفتهما تلك بمزيد من الضحك والسخرية، وبعد أن تودعا مضى كل منهما في طريقه، ومالت الشمس نحو الغروب.

يتحلّق الرجال في تلك الليالي حول النار التي تشق بضوئها جلباب ذلك الظلام الدامس، ويتسلّل دفؤها إلى عظامهم، ويرقد إبريق الشاي برائحته القروية إلى جانبها، فيما يجلس الشبان غير بعيد عن النار، وتختفي النساء في عتمة البيت الكبير،

وأصوات الكلاب لا تفتأ تغادر مسامع الجميع، بين فينة وأخرى تُسمع رشفة من كأس شاي غادَرَ لتوّهِ شفتي أحد أولئك الرجال، ويمتزج هذا الفضاء برمته بأصواتهم حين يتحدثون، يتخللها أصوات الشبان الذين يحدثون بعضهم بحديث يكاد يكون همساً حتى لا تغالب أصواتهم أصوات كبار القرية، في حين تلتزم النساء الصمت إلا إذا طُلب منهنّ الكلام، أما الأطفال الصغار فقد دخلوا في سلسلة متتالية من الأحلام بعد أن أقفلت عيونهم منذ غياب الشمس، ولن تُفتح إلا مع صوت العصافير عند طلوع الفجر.

في تلك الأيام كانت ليالي السمر تلك تزدحم بأخبار القرية، وما جاورها من القرى الأخرى، ولا يبخل أحد بما تناهى لسمعه من الأحداث التي تحدث في المنطقة، لا سيما معركة العرب مع الفرنسيين في صيف ذلك العام، فيما عُرِف بواقعة ميسلون، وسقوط دولة العرب في الشام، غير أن هذه الأخبار لم تكن لتأخذ مكاناً كبيراً في زحام الحياة التي يعيشها أولئك القرويون، فانشغالهم بتأمين لقمة العيش، والحفاظ على الأسرة يكاد يطغى على سائر تلك الأحداث، وبعد هذا السمر والحديث ينسحب الرجال واحداً تلو الآخر إلى بيته لينام ما بقي من ذلك الليل، ثم توكل مهمة إيقاظهم فجراً للدِّيَكة التي تُؤذِن بانبلاج صبح جديد، ويومٍ آخر محمل برائحة ثرى تلك الأرض الحبيبة.

كانت الشمس تغالب بعض الغيوم التي ارتسمت في صفحة السماء حينما كان أبو أحمد ينظر إلى الرعيان الذين يسيرون بأغنامهم ومواشيهم إلى المرعى، لتتلقف تلك

الأغنام بقايا الزرع والعشب المُدْبِر مع إدبار ذلك الصيف، ثم أقبل الحاج عودة إليه بوجهه الطَّلْق البشوش:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ وشلونك يا أبو أحمد.

ـ الحمد لله بخير... وشلونك إنتَ.

ـ والله الحمد لله بخير... فاضي؟ في عندي حكي أدي أحْكيه معاك.

ـ سولِف.

ـ كنت امبارح عند عشيرة الشعايلة، وكنت عند عليّان.

ـ عليان ابن حسين؟

ـ آه... عليان ابن حسين، وقال بده يجوّز أخوه سالم، وخاطره يوخذ بنت من عشيرتنا، وجيت أقول لك، وِش رايك؟

ـ والله حيّاه الله...

ثم أطرق أبو أحمد وكأنه يتصفّح في ذهنه صور بنات القرية عموماً، وبنات عشيرة العرارفة خصوصاً، باحثاً لهذا العريس عن واحدة منهن، ولِلَحظةٍ ظنّ أنه لن يجدَ عروساً مناسبة، فليس من السهل في ذلك الحين أن يزوِّج الناس بناتهم لرجل من خارج القرية، تقيدهم في ذلك الحين قيود العشيرة التي ترى أن شبانهم أولى ببناتهم، كما

تقيّدهم المسافة التي تفصل بين مساكن تلك العشائر، وصعوبة التنقل حينئذٍ، وغيرها من الصعوبات، ثم إن أبا أحمد تنبّه، وكأنه أفاق من إغفاءة.

ـ بتعرِف... بِدنا إنجوزُه مليحة.

ـ مليحة؟!

ـ آه مليحة... ليش هو طلب منك بنت محددة؟

ـ لا.

ـ خلص معناتُه بِنجوّزْه إياها.

ـ والله الراي رايك يا أبو أحمد، إنتَ اللي بتقول عنو بصير.

في تلك الأيام لم يكن الراغب في الزواج يرى عروسه قبل زواجه منها، بل كان كثير من الشبان يطلبون الزواج من بعض البنات لسمعة أبيها، أو لشجاعة إخوانها، أو لمحبة في عشيرتها، فمعايير الرغبة في الزواج لم تكن مرتبطة بالفتاة نفسها – في أغلب الأحيان – بل بالمحيط الذي تعيش فيه، وهذا ما كان بالنسبة لسالم ابن حسين، فهو راغب بالزواج من واحدة من بنات العرارفة ليس إلا، ولا يهمه من هي تلك الفتاة، ورأى أبو أحمد في ذلك الزواج إسداء خدمة لمليحة الفقيرة التي ربما خامَرَها الشكّ بأن حالها الرديئة تلك ستقف حائلاً في وجه من يرغب في الزواج منها.

ثم اختتم أبو أحمد تلك الوقفة بقوله:

ـ وصّل ليهم خبر إنهم يِقْدموا وحياهم الله.

ـ إبشر يا حج.

مضت بضعة أيام بعد هذا الموقف، تشاور فيها أهل عشيرة العرارفة حول تزويج مليحة من سالم ابن حسين، وهو أحد أبناء عشيرة الشعايلة، عُرِضت فيها مليحة على أبناء القرية إنْ كان لهم رغبة في الزواج منها، غير أنهم رفضوا، بل كان رفضهم ممزوجاً بالسخرية والاستهجان، وبشيء من الحط من شأن مليحة وأهلها، هذا ما دفع بعودة لإرسال خبر إلى عليان ابن حسين كي يأتوا لخِطبة مليحة لأخيه سالم.

وبعد أن أتم الحاج عودة المهمة التي أوكلت له بإخبار عليان بأن عشيرة العرارفة يقبلون تزويج أخيه سالم من إحدى بناتهم، وصل الرجال من أهالي عشيرة الشعايلة إلى قرية صِنِفْحَة، يصحبهم عليان وسالم، وهما أخوان ليس لهما أخ سواهما، بل هما ابنان لرجل وحيد، هذا يعني أن عليان وسالماً ليس لهما أبناء عم مباشرين، وليس لهما إخوة، لهما أخت واحدة فحسب، يذكر أن عليان تحديداً كان من أصحاب السطوة والسلطة في عشيرته؛ لما يتمتع به من شخصية فذة قيادية، ثم قُدِّمت القهوة لوجوه عشيرة الشعايلة، ووُضِعت بين يدي كبير الجاهة، فافتتح كلامه بالصلاة على النبي الكريم، ثم امتدح أهل صِنِفْحَة عموماً، وعشيرة العرارفة خصوصاً، وثنّى بطلبه يد مليحة لسالم، فكان الرد من أبي أحمد بالقول:

. حياكم الله، ابشروا في اللي جيتوا فيه، وتراها جتكم، والله يحييكم.

انهالت عبارات المباركة على ألسنة الحاضرين، ودارت القهوة بين أكف ذلك الجمع، معلنة برائحتها الزكية تمام تلك المناسبة، ولحظة من لحظات السعادة التي غمرت مليحة ووالديها بأن تزوجت ابنتهم، فربما تسل اليأس يوماً ما إلى فؤاد أم مليحة بأن الحال التي عليها ابنتها قد لا تمنحها فرصة للزواج، غير أن الفرصة قد وصلتها، صحيح أن زوجها ليس من القرية، ولن تسكن مليحة بالقرب منهم، إلا أن ذلك أفضل من أن تبقى رهينة المستقبل الغَبِش الذي تبدّى لها من أركان قرية صِنِفْحَة.

منحت الأيام القليلة التالية مليحة فرصة لتجهيز نفسها، فالزواج سيتم خلال عشرة أيام، وما كان هذا الإسراع إلا بقصد إدراك ما تبقى من الأيام الدافئة في منتهى ذلك الصيف، وبقصد التسهيل على العريس – سالم – وأهله باعتبار أنهم من قرية أخرى، والإسراع في الزواج يخفف عن كواهلهم بعض المشقة والشدة نتيجة التنقل بين القريتين.

واجتمعت النسوة في بيت أهل مليحة، وانطلقت الزغاريد معلنة تجهيز عروس جديدة في هذه القرية، فيما انشغل الرجال بوفادة أهل عشيرة الشعايلة الذين جاؤوا لأخذ العروس في موكب الفاردة، فالجمل الذي ستُحمل عليه العروس مُزيَّن بالألوان البهيجة، ومُعطَّر بالروائح اللطيفة، والنساء اللواتي حضرن لمصاحبة العروس يغنين ويُزغردْنَ فرحاً بزواج أحد شبان العشيرة، ثم حُمِلت العروس على ذلك الجمل، وتحلّقت النساء حولها بفرح وسرور، ثم أدارت تلك القافلة ظهرها لقرية صِنِفْحَة، واستقبلت مليحة ببصرها الطريق المفضي إلى مساكن أهل زوجها، وأدركت أنها بعد هذا اليوم لن

تستمتع بأريج قريتها، وفضاء بيئتها التي عاشت فيها طفلة، وسارت في دروبها صبيةً... اختلطت هذه المشاعر بمشاعر الفرح بالزواج، وامتزجت دموع الفرح بدموع الحزن في موقف قد لا يتكرر كثيراً على الإنسان في حياته، وأسدلت قرية صِنِفْحَة الستار على حكاية زواج مليحة... أيام قليلة وسينسى أغلب أهالي القرية مليحة، وربما لن يذكرها إلا أهلها وحسب.

كان لهذه المصاهرة الجديدة لون من التقارب بين عشيرتين كبيرتين في ذلك الزمان، إذ يكاد الناظر لا يخطئ المودة التي ستقيم في بيوت هاتين العشيرتين، ولكن قد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، ففي ظاهر الأمر هي مجرد مصاهرة اعتيادية لا جديد فيها، إلا أن الأيام بل السنوات المقبلة حُبلى بالوقائع المريرة، ومُثقلة بالدموع والدماء.

تزاحمت السحب الماطرة في صفحة السماء، واشتد صرصر الريح على أجساد أولئك الفلاحين في قرية صِنِفْحَة، وهُرِع الناس والدواب نحو الأودية الوعرة بالقرب من غور الأردن، قاصدين الدفء، وهاربين من سطوة البرد، وقسوة الثلج الذي لا يلبث أن يحط رحاله فوق قمم الجبال وسفوحها، فالشتاء لا يَرْحَم، والنزوح باتجاه غور الأردن يمنح الناس الدفء، والدواب شيئاً من الكلأ الذي سبق الربيع الآتي، خصوصاً أن شهري كانون هما شهرا ولادة الأغنام التي في حوزة أولئك الفلاحين، فهم يبحثون لها عن مكان مناسب غير تلك الجبال قارصة البرودة.

وأتى الشتاء محملاً بالغيث والثلج والخير الغزير، واستبشر الناس بموسم زراعي وفير، وبِغلّة من الحبوب والمؤونة تقيهم الجوع، وتغنيهم عن الحاجة، وشُدّت الرحال للعودة إلى قرية صِنِفْحَة في بداية أيام الربيع، ووُدِّعت الأودية الوعرة من قبل الفلاحين وهم يوقنون بالعودة إليها من جديد في الشتاء القادم.

مضى على زواج مليحة بضعة أشهر، ولم تأتِ الأيام بخبر عنها، بل لم تفصح لها الظروف عن زيارة ولو قصيرة لأهلها، في ذلك الحين كانت النساء يقمنَ في بيوت أزواجهنّ شهوراً طويلة وربما سنوات لا يزرْنَ أهلهنّ لبعد المسافة، وصعوبة التنقل، وانشغال الناس بتدبير حياتهم، وكان الأهل يأمنون على بناتهم، ويرجون لهنّ الاستقرار في ظل أزواجهنّ، فاحترام الزوجة من احترام أهلها، والكل يحافظ على مسافةٍ مناسبة من الاحترام بينه وبين أنسبائه، هذا ما يكفل للجميع حقه، ويضمن له مكانته.

واشتاقت نفس مليحة للربيع في قريتها، وتطلع قلبها لتلك السفوح الخضراء التي تتدلى على جوانب الجبال قرب صِنِفْحَة، هي ملاعب الطفولة، وموطن الفؤاد، فقالت لزوجها يوماً:

ـ والله يا سالم خاطري أزور إهلي.

ـ ولا يهمّكِ... خليني أرتّب أمور الحلال والحراث مع عليان، وبعدين بنجهّز حالنا أنا واياكِ وبنروح نزورهم.

لم تستطع مليحة إخفاء فرحتها بهذا الخبر، كما لم تستطع أن تكتم سعادتها بزوجها الذي يحرص على تلبية رغبتها، بل ومرافقتها للذهاب إلى أهلها، فسالم زوج مليحة رجل كريم الطبع، ليّن الأخلاق، يعامل زوجته بالمودة والحب، فجُلّ سَعيه العيش في سعادة واستقرار، فجمعت مليحة بعض ثيابها، وهيّأت زينتها، وأخذت حليّها من الذهب والفضة، وتجملت فرحاً بقرب ذهابها لزيارة أهلها.

وبعد أيام حلّ بقرية صِنِفْحَة ضيف وصهر وعزيز، إنه سالم ابن حسين برفقة زوجته مليحة، وأبرقت عينا أم مليحة فرحاً بزيارة ابنتها، وأُوْلِمت الولائم لاستقبال الصهر والضيف، واستقبل أبو أحمد سالماً في بيته، وتحادثا عن الربيع والكلأ، والمواشي، وغيرها من أمور الفلاحة، وهذا متوقع، فماذا إذن سيحدِّث الفلّاح رفيقه الفلّاح؟!

في اليوم التالي خرجت مليحة قاصدة نبع الماء، فشوقها لصُوَيْحباتها يملأ قلبها، ورغبتها في لقائهنّ والتحدث معهنّ تفور بها نفسها، فالسنة التي مضت لم تُنسِها أيام الصِّبا معهنّ، وفي طريق عودتها لمحَها مفضّي، وكان ذاهباً ليلحق بالرعاة الذين سبقوه، وما إنْ وقع بصره على مليحة حتى تجمدت قدماه، وتيبّس الدم في عروقه، لم يكَد يعرفها، قال في نفسه:

ـ هذي مليحة؟!!

ما حصل لمفضّي لم يكن متوقّعاً، ولكنه حصل حقيقة، فمليحة رثة الثياب، كريهة المنظر، مخشوشنة اليدين لم تعد كذلك، فالثياب الجميلة منحتها جمالاً، ومكوثها طوال

الأشهر الماضية في بيتها أماط لثام السمرة المفرطة عن وجهها، والاهتمام بنفسها منح يديها نعومة واضحة، ورائحة الطيب وصلت إلى أنف مفضّي، تسمّر في مكانه، وتقطعت أنفاسه في صدره، وبقي يرمقها بعينيه حتى توارت بين بيوت الطين المفضية إلى بيت أهلها.

وصل مفضّي إلى المرعى، ولا تزال صورة مليحة حاضرة في ذهنه، ربما أحس لوهلة أنه قد أضاع منه هذه الجميلة، كيف يراها جميلة الآن وكان يراها من قبل قبيحة؟! أم هو الزواج هكذا يفعل بالنساء، حدّث نفسه وحاورها كثيراً في طريقه للمرعى، ونسي كل العيوب التي كان يراها في مليحة، وفي لحظة ما، برز له أحمد فجأة أمام عينيه، فانشغال ذهنه، وتفكيره المتخبّط قصَّر عليه المسافة إلى المرعى، وغيّب عن عينيه ومسمعه أحمد وهو يلوّح له بيده ويناديه... ثم تنبّه:

- يا مفضّي... هييه.

- آه.... سامعك.

- وين سامعني يا خويّ؟ إنتَ ليك ساعة سرحان.. وأنا بنادي عليك.

- لا تلومني يا أحمد.

- خير... وِش فيه؟

- وأنا جاي عليك شفت شوفة طيّرت عقلي من راسي.

- وش هالشوفة؟

ـ مليحة يا أحمد... مليحة.

ـ علامها مليحة؟!

ـ قمر... قمر....

ـ اخْص يا مفضّـي... هذي مَرَه مِجَّوزِة.

ـ لا تفهمني غلط، أنا قصدي...

ـ وشّو قصدك،... بدّكْ إياها في الحرام.

ـ لا والله، مو في الحرام.

ـ لعاد وشو قصدك.

ـ بدّي أخلي جوزها يطلقها.

ـ دير بالَك... دير بالَك... عيب اللي بتقوله، والله لو يسمعوك الحِجّاج ليذبحوك. هذا كلام واحد مو عاقل.

ـ خلص إنسى الموضوع... انساه.

في حقيقة الأمر لم ينسَ مفضّـي الموضوع، ولم تغادر صورة مليحة مخيلته في تلك الليلة، أمضى شطراً كبيراً من الليل وهو يفكر في الطريقة التي يتمكن بها من إجبار سالم على تطليق مليحة، ثم أومأ له الشيطان بفكرة خبيثة، وضع خطتها في ذهنه، واستلقى في فراشه منتظراً بفارغ الصبر طلوع الصباح.

وبعد أن أيقظت الدِّيَكة أهالي قرية صِنِفْحَة، وتسابق الناس نحو مواشيهم، وزروعهم، وانشغل الجميع بمشاغله اليومية، بقي مفضّي متربصاً بين البيوت الطينية، ينتظر سالماً أن يخرج من بيت أنسبائه حتى يُنجز خطته، وفي لحظة ما خرج سالم لبعض حاجته، فتلقفه مفضّي، وسلم عليه بحرارة، وسأل عن أخباره، وكان سالم لا يعرف أحداً أبعد من أنسبائه والحاج مفلح، وبعض الرجال، فكان سلامه لمفضّي حاراً من باب المجاملة لا غير، ثم قال مفضّي:

ـ وش رايك يا النسيب بدل ما إنت قاعد زهقان إنك ترافقني لهالزيتونات بدي اشتغلهن، وإنت بتتسلى معاي.

راقت الفكرة سالماً، وأبدى موافقته، مع أنه وافق مجاملة، فهو لا يريد أن يخيب أمل أحد سكان قرية أنسبائه، بل يريد أن يحافظ على قدر كبير من الاحترام المتبادل بينهم، ومضى الرجلان إلى أشجار الزيتون التي تبعد مسافة يسيرة عن بيوت الطين، وأخذ مفضّي يحدّث سالماً في الطريق بحديث الترحيب والفرح بقدومه ضيفاً عليهم، وحينما توغل الرجلان بين أشجار الزيتون، وعلى حين غرة من سالم، التفّ عليه مفضّي، وطرحه أرضاً، وأخرج شبريته من حزامه ووضعها على رقبة سالم.

ـ ولا حركة وإلا بذبحك.

ـ كفا الله الشر يا رجل علامك.

ـ ولا كِلمة.

ثم عمد مفضّي إلى جذع زيتونة كبيرة، وربط سالماً إليها، والدهشة ترتسم على وجه سالم، فهو لا يصدق ما يجري حتى هذه اللحظة، فما الذي جرى حتى يقوم مفضّي بهذا الفعل؟ ثم صمت مفضّي لبعض الوقت، ثم قال:

ـ بدّك إطَّلق مليحة غصباً عنك.

ـ علامك يا زلمة... كيف أطلق مَرَتي، عيب اللي بتسويه.

ـ بقول بدّك إطّلقها يعني بدك إطّلقها.

أحس مفضّي أن هذا العمل قد لا يجدي نفعاً في إكراه سالم على تطليق زوجته، فأخذ يهين سالماً بالكلام والشتائم، بل حتى إنه همّ بضربه للحظة ما، وكان كُل إرادته أن يجبره على تطليق مليحة، ثم ظهر طيف من وراء أشجار الزيتون، مما دفع سالماً للصياح به كي ينجده، ولما اقترب إذا به أحمد:

ـ وشو هذا... مين هالرجل؟ مفضّي! شو سوّيت؟

ـ قلت لك إني بدي أخليه يطلقها.

اختلى أحمد بمفضّي غير بعيد عن سالم المربوط إلى جذع شجرة الزيتون، ونهاه عن هذا الفعل، إلا أن مفضّي أصرّ على موقفه، وكان مصمماً على إنهاء ما بدأه بالهيئة التي يراها مناسبة، مما دفع أحمد لمغادرة المكان قاصداً القرية كي يخبر أهلها بما يجري، ولم يفصح لمفضّي عن نيته تلك حتى لا يُقدم على فعل شيء أقبح من ذلك، فظنّ مفضّي أن أحمد تركه وشأنه، وظنّ سالم أن أحمد شريك لمفضّي في هذه

المؤامرة، فصار أحمد دون أن يدري طرفاً في المشكلة التي سيدفع ثمنها هو وعشيرة العرارفة عموماً في زمن غير بعيد.

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى كان سالم جالساً في مضافة الحاج مفلح – أبو أحمد – وكان وجه الحاج مفلح يتقاطر عرقاً لشدة خجله مما أقدم عليه مفضّي، في حين كان سالم يلتزم الصمت، ويرى أن الحاج مفلح غريماً له، فهو أبو أحمد، ولم يدرك أن أحمد هو من أخبر القرية، ثم قال الحاج مفلح:

ـ حقك علينا يا سالم... هذا مفضّي بدو تأديب.

ـ وابنك أحمد معاه.

ـ ابني أحمد مو معاه، أحمد دافع عنك.

ـ أحمد تركني وراح، ما كلف حاله إنو يفكني أو يساعدني.

التجأ الحاج مفلح للصمت، فموقفه ضعيف أمام هذا الفعل المشين، كيف يُجبر مفضّي رجلاً على تطليق زوجته؟! إنه فعل مشين حقاً، حاول الحاج مفلح أن يستدرك الموقف بغير قليل من عبارات الاعتذار، إلا أن سالماً لم يكن فيما يبدو متجاوباً مع هذا الكلام كله.

في اليوم التالي لم ينتظر سالم الشمس حتى تطلع، ركب دابته، وقفل عائداً إلى قريته، صادفه أحد الرعاة في طريقه، فأخبره أن يوصل للحاج مفلح أن مليحة طالق، ثم مضى.

أقبل الحاج مفلح على ابنه أحمد وعلى مفضّي بالتوبيخ والاستنكار على ما بدر من مفضّي، وعلى ما كان من موقف أحمد رغم أنه صحيح إلا أنه فُهِم خطأً، ثم سكت منتظراً ما تؤول إليه الأمور.

في عشيرة الشعايلة كان الأمر مضبوطاً نوعاً ما، فقد أحجم عليان – الأخ الأكبر لسالم – عن الرد، ولم يرغب في أن تتسع الفجوة بينه وبين أهالي صِنِفْحَة عموماً وعشيرة العرارفة خصوصاً، ولكنه طمأن أخاه بأنه سيزوجه زوجة خيراً منها، ثم عزّاه بأن أهل عشيرة العرارفة لا بد أن يعتذروا لهم، ويرسلوا وجهاء العشائر للصلح بين العشيرتين.

وصلت الأخبار إلى عشيرة العرارفة أن عليان وأخاه لم يفعلا شيئاً، وهما على أمل الصلح بين العشيرتين، ورجاء أن يأتي وجهاء العشائر لإحقاق الحق، إلا أن ذلك لم يحصل، ولن يحصل، فدون سبب مقنع تجاهل العرارفة هذا الحق، بل أحسوا بشيء من الغطرسة والكبر تجاه عليان وسالم، فهما أخوان لا غير، وليس لهما أعمام، فكأنهم استضعفوهما، واستكبروا عليهما أن يأتوهما بوجوه القبائل وشيوخها حتى يُحكَم عليهم بالحق، فنسوا وتناسوا الأمر.

أما مليحة، فقد أمضت عدتها بعد طلاقها في بيت أهلها تندب حظها، وتبكي سوء طالعها، فليس لها ذنب فيما حصل كله، وها هي تدفع الثمن، لم تغادر مسحة الحزن

وجهها في تلك الأيام، وكان مفضّي ينوي الزواج منها، وهو ما أثنى عليه أكثر رجال القرية، فهو الذي أخطأ في حق مليحة، وعليه أن يتحمل نتيجة خطئه ذاك.

وبعد أن جَمَعَ البيدر قمحه وتبنَه، وخلا من الفلاحين، اشتعلت بضع ليالٍ بزواج بعض شبان القرية، كان من بينهم مفضّي الذي زُفَّت إليه مليحة، وكان أهالي قرية صِنِفْحَة يجاملون مفضّي في مشاركته ذلك الفرح، فهم لمّا يرضوا بعد عن فعلته القبيحة ببنت عشيرته، وبصهرهم من عشيرة الشعايلة، ثم ضاقت الحلقة على عنق مفضّي بعد الزواج شيئاً فشيئاً، وأحس أنه منبوذ بين أفراد العشيرة، وأن الكل ينظر إليه نظرة ازدراء، مما دفعه في ليلة من الليالي أن يقرر الذهاب عن صِنِفْحَة، وتركها للأبد.

وفي صبيحة أحد أيام الخريف، حمل مفضّي على دابته بعض متاعه، وأخذ زوجته، وانطلق على وجهه لا يدري إلى أين يمضي، وأدارت مليحة ظهرها لقريتها صِنِفْحَة دون عودة، هي التي لم يكن لها ذنب في كل ما حصل، ولكنها تدفع الثمن من حُشاشة روحها، وقطعة فؤادها، لم يودعهما سوى الأرض المقفرة التي تتهيّأ لاستقبال المطر، ولم يلوّح لهما سوى الأشجار العارية، قيل إنهما ذهبا إلى عمان، وقيل إلى السلط، وقيل إلى فلسطين، ولكن ما يعرفه الجميع أنهما لم يعودا بعد ذلك أبداً.

(2)

دار الزمان دورته من جديد، بشائر العشب الأخضر تشق وجه الأرض معلنة قدوم الربيع، وخضرة الزرع تزداد يوماً بعد يوم أمام نواظر الفلاحين الآملين بموسم جيّد بعد شتاء أفاض بأمطار الخير على هذه البقعة من الأرض، ورائحة الدفء تشق طريقها بين دروب القرية، وبين أسراب الزيتون، ولا تزال بعض جيوب البرد حاضرة في المساء وبُعيد طلوع الفجر، أصوات الخراف والأغنام تخالط أصوات الكلاب التي تباري في مسيرها أقدام الرعاة، ومواليد الأغنام الغضة تتبع أمهاتها، وتلقم ضروعها، والفلاحون جميعاً في سباق مع الزمن، فهذا يحرث الأرض، وذاك يساعد الرعاة، وتلك تجمع الحطب، وثانية تمخض الحليب لتستخرج الزبدة واللبن، سباق محموم مع الزمن، والجميع يعرف ما يناط به من مهمة.

قُبَيل مغيب شمس أحد تلك الأيام الربيعية الجميلة، وقف فلاح الابن الثاني للحاج مفلح غير بعيد عن بيوت القرية الطينية، يجمع أنفاسه في صدره وكأنه يتلقّفها من بعيد، قطرات العرق لم تزل تتلألأ على جبينه، ومِسْحاته التي كانت على كتفه صارت الآن مُتّكأً يقف إلى جانبه، همّ بتقديم قدمه اليمنى متابعاً مسيره، ثم ما لبث أن تراجع، إنه يحس برغبة جامحة لمزيد من الراحة والتقاط الأنفاس، فالعمل في بستان الزيتون

منذ الصباح أنهك قوته، وهو الآن لا يفكر إلا بكأس شاي دافئ يعيد لروحه نشاطها، وقطعة خبز يَغْمِسُها في صحن "الغَبِيب"، وبساط يفترشه حتى يحين صبح اليوم التالي.

أخذت قطعان الأغنام تقترب من مرابضها وحظائرها في القرية، وذلك بعد أن عادت من المرعى، يسوقها الرعاة المتعبون، تترنّح ضروعها مثقلة بالحليب في انتظار الحالِبين، وعلى منتهى بصر فلاح يتقدم أحمد بمصاحبة الراعي شيئاً فشيئاً، فأحمد لحق بالراعي منذ الصباح، وكان عوناً له في رعاية الأغنام ومتابعتها في المرعى، وما هي إلا بضع لحظات حتى كان أحمد على مسافة قريبة من فلاح، يسمعه ويراه، في تلك اللحظة لم يكن أحمد – الأخ الأكبر – بأقل تعباً من فلاح، فبادره بالقول:

ـ إنتَ واقف هانا؟

كانت عبارة أحمد تلك لا تخلو من شيء من الغضب والتوبيخ، وهو المعنى الذي لم يخفَ على فلاح، فردّ بعبارةٍ غاضبة:

ـ أنا هذي جَيْتي من بستان الزيتون، ووقفت أرتاح، ما أنا واقف ألعب.

ـ بَطِّلْ كلام فاضي وتعالى أحلب النعاج مع الراعي.

ـ بقول لك أنا هذي جيتي من الشغل في الزيتون... وإنتَ بتقول تعال أحلب.

في أثناء هذا الحديث كان أحمد قد اقترب رويداً رويداً من أخيه فلاح، وصارت المسافة بينهما لا تزيد عن ثلاث خطوات.

ـ يعني أنا أللي من الصبح مع الغنم أحلبها كمان؟!

ـ والله أنا ما لي دخل، ما بحلبها، هُوْ ما في غيري.

ـ بدّك تحلبها غصباً عنك.

ـ قلت ما بحْلُبها يعني ما بحْلُبها.

كان للتعب الذي أنهك قوى فلاح أثره القاتم على مزاجه، كما أن إحساسه بتسلط أحمد – أخيه الأكبر – زاد من سوداوية نفسه، ثم ضجّت أصواتهما في المكان، واشتدّت العبارات بينهما، فتجمّع بعض أهالي القرية الذين سمعوا شطراً من هذا الحوار، وحاولوا تهدئة الأخوين، فالموضوع تافه، ولا يستحق كل هذا الغضب، خُيِّل لأحمد أن مزيداً من الحوار قد يفضي إلى مشكلة أكبر، لذا حاول أن يحتوي الموقف، ويبتعد عن فلاح ريثما يفكر في حلّ لما جرى، فلاذ بالصمت، غير أن فلاحاً استشاط غضباً من أخيه أحمد، وتزايدت عصبيته، وفي الوقت الذي كان أحمد يهمّ بترك المكان، بلغ الغضب من فلاح منتهاه، ولم يجد قريباً منه سوى المِسحاة التي يتكئ عليها، فهوى بها على ساق أخيه أحمد، أدرك بعدها مباشرة أنه قد أخطأ خطأً ذريعاً.

أما أحمد، فبمجرد أن أصابه فلاح بهذه الضربة أحس أن قدمه غير قادرة على الثبات، وهَوت به على الأرض، ثم انفجر الدم من جرح غائر وصل حتى العظم، لم يكن فلاح يتصور أن هذه الضربة ستفعل بساق أحمد هكذا، فألقى مِسْحاته من يده، واقترب من أخيه الذي اقتعد الأرض، وصله هو ورَجُلان من رجال القرية في اللحظة ذاتها، وكان أحمد يصرخ ملء فمه، ويصيح لشدة الألم، فلما انكشف ساقه أمام عيون

أولئك الرجال برز العظم مكسوراً، وارتسمت ملامح اللوم والدهشة على وجوه الحاضرين، إذ كيف لفلاح أن يضرب أخاه الأكبر ويكسر ساقه؟! كيف ذاك والأولى به أن يحترمه ويطيع كلامه.

كانت صرخات أحمد تلك تقتحم صخب القرية وصوت أغنامها، وتناقلت الألسن هذا الخبر بسرعة البرق، حتى وصل صداه إلى أذني الحاج مفلح، فما كان به إلا أن همّ بالذهاب إلى طرف القرية حيث كانت الحادثة، ولكنه ما إنْ سار بضع خطوات عن باب بيته الطيني الكبير، حتى أسرع تلك الخطى، وتسارعت أنفاسه فقد أقبل الرجال وهم يحملون أحمد بينهم، وصلهم لاهثاً خائفاً غاضباً، تمازجت هذه المشاعر جميعاً وارتسمت بعلامات لا يمكن تفسيرها على وجهه، الحاضرون ذلك الموقف رأوا الحيرة كلها في وجه الحاج مفلح.

ـ وشّو اللي صار؟

لم يكن هذا السؤال من الحاج مفلح بقصد الاستفسار، فالألسن قد أتته بتفاصيل الخبر، ولكنه لهول ما في نفسه لم يدرِ ماذا يقول.

ـ فلاح ضربني في المِجرفة على رجلي وكسرها.

ـ الله لا يعطي فلاح العافية.. وين هوْ الحين؟

ردّ أحد الرجال الذين يصحبون أحمد:

ـ ما عليك مِنّو يا حج... هرعي قاعد في طرف القرية.

ـ الله لا يعطيه العافية... الله لا يعطيه العافية...

تقدّم الرجال نحو بيت الحاج مفلح، تسوقهم أرجلهم التي تتلاطم بالحصى على جانب الدرب، ويدفعهم تأوّه أحمد للإسراع في إيصاله إلى البيت.

وُضِع الفراش الصوفيّ في ناحية من بيت أبي أحمد، وجيء بالماء كي يُغسَل الجرح، ثم وُضِعت بعض الأعشاب الطبية التي توقف النزيف، وتخفف بعض الألم الذي أصاب أحمد، وحين توقف الدم ظهر العظم الأبيض جلياً أمام أعين الناظرين، كان منظراً اقشعّرت له جلودهم، لم يزد الحاج مفلح علة الحوقلة في تلك اللحظات، في حين تسربت دموع أم أحمد على خديها، لم يُسمَع لها صوت بكاء أو نحيب، ولكن عينيها فضحتا حزنها، فالضارب ولدها، والمضروب ولدها، وهي بين هاتين النارين تخشى عاقبة الأمور.

غُصّ المجلس برجال قرية صِنِفْحَة في الساعة ما بين المغرب والعشاء، وتلاطمت الألفاظ ما بين لائم لفلاح، ومواسٍ لأحمد والحاج مفلح، وما بين مُتَمهِّلٍ لتلك الأفواه اللائمة والمواسية، وطالبٍ من الجموع التفكير في مُجبِّر يُجبِّر ساق أحمد، فالمهم الآن البحث عن مجبِّر ماهر يتمكّن من إعادة عظم الساق إلى ما كانت عليه.

ثم تحدّث الحاج عودة:

ـ يا رجال... لازم نودّيه على ابن قطيش هوْ أحسن واحد بجبِّر.

رفع الحاج مفلح بصره، وتنهّد تنهيدة ظنّ الحاضرون أنها لشدة طولها لن تنتهي، ثم قال:

ـ أنا بكرة من فجّت الضو بوخذه لابن قطيش عشان يجبّر رجلُه.

وما إنْ أتمّ الحاج مفلح كلامه حتى سُمِع صوت الحاج عودة:

ـ وأنا بروح معاك.

ـ لا ما ناس بروح معاي... كل واحد عنده مشاغلُه،، بروح لحالي... والشغلة ما بدها شي كثير، لها الظهر بكون عند ابن قطيش، وبجبّر رجله، وبنِرجع.

ـ الله يهديك يا حج، خليني أرافقك، الرفيق زين.

ـ يا حج عودة المضوع سهل، وما بدها كل هالغلبة، أنا بروح وما عليك.

بعد أن أسدل الليل جلبابه الأسود القاتم على بيوت تلك القرية، كان الجميع قد أوى إلى فراشه، وحطّت قدما فلاح بباب علي – أبي خلف – لمّا ناداه مستأذناً، عرف علي صوته، فقابله بشيء من اللوم والتوبيخ، ولكنه عرف مقصده من هذا القدوم، إنه يريد أن يبيت الليلة عنده ريثما يهدأ الحاج مفلح، وريثما تعتدل الأمور، فليس من الصواب أن يدخل البيت على أبيه وهو في هذه الغمة.

ـ لويش سويت هيك يا زلمة.

ـ اللي صار صار، والله ما كنت قاصد إني أكسر رجلُه، بس الله يلعن الشيطان.

ـ توكّل على الله، فوت... فوت نام عندي الليلة والصباح رباح.

وفي الطرف المقابل كان عليان وسالم يفوران غضباً، وكانت نفساهما تجيشان في صدريهما مثل مِرجل يغلي، يكاد لشدة غليانه أن يفور بزبده على كل ما حوله، فإهانة سالم مضى عليها عام بأكمله، ولم يكلّف أهل عشيرة العرارفة أنفسهم عناء الاعتذار منهم، صحيح أن الموضوع صغير، ولكن أعظم النار من أصغر الشرر، ومما زاد من جذوة تلك النار التي تشتعل بها نفسا عليان وسالم تلك العبارات التي تتناهى لمسمعهما بين حين وآخر، فاللامزون كثر، وأهل الفتنة يحيطون بهما من كل جانب، منهم من أراد أن يتخلص من سلطة عليان عبر إقحامه في شجار طويل مع عشيرة العرارفة، ومنهم من يرى أن إحجام عشيرة العرارفة عن الاعتذار إهانة لكل الشعايلة، كانت كُل عبارة تحريض يتفوّه بها أحدهم أمام عليّان بمثابة لقمة جديدة من الحطب تلتقِمُها النار التي اشتعلت في صدره ليزداد أجيجها، فالمكانة والشرف تُقاس عنده بالمواقف لا بالأقوال، وإهانة مثل هذه له ولأخيه سالم ستفتح الباب على مصراعيه لإهانات قادمة حتى من أقرب الناس إليه، فعزم على أن يقطع رأس الأفعى، ويضع حداً لكل ما جرى ويجري.

انبلج صبح جديد، وتجهزّت بغلةٌ سوداء أمام بيت الحاج مفلح، بعد لحظات حُمِل أحمد على ظهرها، برودة ذلك الصباح تسللت إلى جرحه فزاده ألماً، ثم امتطى الحاج مفلح ظهر تلك البغلة رديفاً لابنه أحمد، وكزها فانطلقت، وما إن سارت بضع خطوات حتى توقفت وألقمت فمها نبتة من العشب كانت غضة طرية بجانب الدرب، انتهرها

الحاج مفلح فرفعت رأسها وأكملت طريقها، كانت أم أحمد تراقب المشهد من أمام بيتها الطيني، لم تدرِ لماذا خُيِّل إليها أن تلك البغلة لا تريد المسير، وكأنها تحاول أن تكسب بعض الوقت قبل أن تبتعد، ثم اقتحم صدرها هبة خوف لم تدرِ من أين هبّت، واقشعرّ جلدها، أحست أن قوة خفية تريد أن تقول لها شيئاً، وأحست أن صورة تلك البغلة ومن عليها تتضاءل شيئاً فشيئاً كما لو أنها تذوب في مستقبل مخيف، ثم فركت عينيها، واستغفرت الله، وحاولت أن تبعد الوساوس الشيطانية عن ذهنها.

كررت أم أحمد الاستغفار مرات عدة، ولمّا غابت البغلة ومن عليها وراء الأفق نظرت إلى السماء:

ـ الله يرجعكم في حال السلامة.

ثم عادت لبيتها وتشاغلت عن تلك الأفكار المخيفة التي اقتحمت عليها نفسها، غير أن انقباضاً غريباً لم يزل يهيمن على قلبها لا تعرف ما سببه ومتى يغادرها، ثم التهمتها زاوية البيت الطيني أمام موقِد من النار وضعت عليه زبدة تريد أن تحولها سمناً، أدارت الملعقة الخشبية في القدر الذي استقرّ على تلك النار، ثم ذهبت في تفكير عميق، وسرح ذهنها في هذه الأحداث الجارية، كان نظرها مثبّتاً على تلك الزبدة في القدر كي لا تجيش، وبعد مدة من الوقت لم تعرف كم هي رفعت بصرها فجأة، فرأت مجموعة من جثث الرجال قتلى ممدّدين في وسط الحجرة، كان عددهم ما بين ستة رجال إلى ثمانية، فهبّت واقفة تتقاذفها مشاعر الفزع:

ـ بسم الله... بسم الله

لم يكن ذلك المنظر حقيقياً، ربما أغفت ورأته على سبيل الحلم، أو ربما خُيِّل لها ذلك، ولكن دقات قلبها تصرخ في صدرها بخوف شديد، ورهبة عظيمة، ثم قررت أن تطوي صدرها على ما تخيّلت، وألا تحدّث به أحداً.

سُوَيعات ووقفت البغلة السوداء بباب ابن قطيش المُجبِّر، نزل الحاج مفلح عن بغلته، ونادى مستأذناً:

ـ فوت الله يحييك.

ـ تِحْيا.

ثم انكشف باب ذلك البيت الطيني عن سحنة سمراء، غزى الشيب سواد شعرها، واستقر شِماغٌ أحمر فوق هامتها:

ـ فوت الله يحييك.

ـ كيف حالك يا حكيم.

ـالحمد لله.

ـ أنا الحاج مفلح أبو أحمد العرارفة، جيتك معاي ابني أحمد رجلُه مكسورة، بدي أتْجبّرِها.

حينما سمع ابن قطيش هذا الاسم اعتراه الصمت، وهيمن عليه السكوت لبرهة، وكأنه وقع على خبر عظيم، فهو يعلم جيداً ما جرى بين العرارفة والشعايلة، وعليان ابن حسين صديقه الحميم:

ـ الله يحييك.

ثم رفع صوته منادياً:

ـ يا ولد.

أقبل شاب عشريني من جانب البيت:

ـ يا عونك.

ـ طيّحوا المريض عن البغلة وفوتوه جوّا الدار... تفضل يا حج تفضل.

ـ الله يسلمك.

اقتعد أبو أحمد فراشاً منسوجاً من الصوف، وجيء بأحمد يحمله شابان اثنان يساعدان ابن قطيش في تطبيب المرضى، وبعد أن أفاض ابن قطيش بعبارات التحية والترحيب، استأذن الحاج مفلح ليأتي بأدوات التجبير، وأشار لأحد الشابين فخرجا معاً.

لم يكن هذا الموقف ليثير شبهة في نفس الحاج مفلح الذي اعتلته السكينة والارتياح، ولم يكن يشك مطلقاً في نوايا ابن قطيش، فهو مجبِّر ليس إلا.

وقف ابن قطيش على بعد كافٍ من باب البيت الطيني، وحدّث ذلك الشاب بحديث يقترب من الهمس:

ـ روح مثل الطير الطاير لعليان الشعايلة، وقول ليه غريمك عندي.

هزّ الشاب رأسه مؤكداً على أنه قد فهم المطلوب منه، ثم امتطى فرساً كانت مربوطة قرب البيت، وانطلق مسرعاً، ثم ما لبث أن غاب خلف غبار حوافر تلك الفرس المسرعة.

مضى وقت غير يسير وابن قطيش لم يفعل شيئاً مذكوراً لتجبير ساق أحمد، بل كأنه بدا لأبي أحمد يتعمد إضاعة الوقت، ولكنه لم يفهم لماذا يتعمد ذلك، ثم أقنع الحاج مفلح نفسه بأن الأمور تسير كما يجب، وربما كان ما يفعله ابن قطيش هو الصحيح من أجل تجبير الساق المكسورة.

وصل الشاب إلى عليّان، ونقل له الخبر، هنالك أسفر وجه عليان عن رغبة بالانتقام، فالخصم قابَ قوسين أو أدنى منه، حمل بندقيته وامتطى حصاناً له، وكذلك فعل أخوه سالم، ودّا لو أن المسافة تُطوى بلمح البصر، كان الزمن الفاصل بين انطلاقهما ووصولهما لبيت ابن قطيش كافياً لوضع خطة للانتقام، ثم توقفت الخيل على مقربة من بيت ابن قطيش، قال عليّان للشاب:

ـ فوت على عمّك واسأله: أي قصبة بدّك إياها؟

كان هذا الكلام رمزاً من عليان بقصد استشارة ابن قطيش ماذا يفعل؟ وأي الرجلين يقتل؟ ففهم ابن قطيش هذه الرسالة وأجاب الشاب:

ـ هاتوا القصبة الغليظة، القصبة الصغيرة ما فيها فايدة، اتركوكم منها.

لما سمع عليان هذا الخبر فهم مقصد ابن قطيش، إنه يرى أن يقتل الحاج مفلح، وبعد برهة اقتحم سالم وعليان البيت على الحاج مفلح، لم ينطق أي منهما بكلمة، فالمفاجأة أبكمت لسان الحاج مفلح وابنه أحمد، كانت رصاصة واحدة التي انطلقت من بندقية سالم واستقرت في رأس الحاج مفلح تكفلت بإنهاء حياته بعض أن لفظ أنفاسه الأخيرة، جرى ذلك كله على مرأى ومسمع من أحمد الذي أحس بأن يديه قد قُيّدتا بالحديد، فهو لا يشعر الآن بألم ساقه البتة، فهناك ألمٌ أكبر حلّ بقلبه.

ثم انهالت عبارات الشتم والسباب على أحمد وعشيرته، وقام ابن قطيش بتجبير ساق أحمد جبيرة خاطئة، قاصداً من وراء ذلك أن تجبر ساقه على عيب، فلا تعود كما كانت، فيحقق بذلك نصراً آخر لصديقه عليان، ثم حُمِلت جثة الحاج مفلح في كيس من الخيش على ظهر البغلة التي قدم عليها، وحُمِل أحمد عليها كذلك، ثم انتهروا البغلة فانطلقت، ولمّا ابتعدت بضع خطوات عن عليان الذي وقف إلى جوار ابن قطيش:

ـ كان وِدّي أذبح أحمد كمان.

ـ لا تخاف... جبرت رجلُه غلط عشان تظل عايبة طول عمرُه.

حينها ابتسم عليان ابتسامة صفراء، وأحس بنشوة الانتصار تتغلغل في نفسه، فمن جهة أخذ بحقه من عشيرة العرارفة، ومن جهة ثانية ازدادت سطوته بين عشيرته والعشائر الأخرى، وأظهر لمن حوله جُرأته في سبيل أخذ حقه.

لم تكن الأمور لتصل إلى هذا الحد لولا الأخطاء التي وقعت من عشيرة العرارفة، أخطاء صغيرة توالت حتى صارت عظيمة في نفس عليان وأخيه، فإهانة سالم قبل عام، ومحاولة إكراهه على تطليق زوجته مليحة، والاستكبار عن مصالحة الشعايلة كلها أخطاء صغيرة في نظر عشيرة العرارفة، ولكنها كبُرت في نفس عليان، ووجدت من يُذكي جذوتها في نفسه بين الفينة والأخرى، حتى وصل الأمر إلى ما هو عليه، وها هي الأمور تدخل منعطفاً جديداً، ربما يُذكي نار الثأر وإراقة الدماء لأعوام عدة آتية.

أخذت البغلة تقطع الطريق العائد إلى قرية صِنِفْحَة، وأحمد على ظهرها وإلى جواره جثة أبيه القتيل، كان لا يحس بألم ساقه التي انكسر عظمها، فقد انشغلت النفس بما هو أشد، وتراءت له بيوت قرية صِنِفْحَة من بعيد، أحسّ بأن الطريق التي احتملت بضع سُوَيْعات لم تكن إلا دقائق معدودة، غاب ذهنه فيها تماماً، وأحس بأنه ينظر إلى الدنيا أمامه من ثقب إبرة، ثم ها هم بعض أهالي صِنِفْحَة يقفون على جانب الدرب ينظرون إلى البغلة السوداء، وأحمد على ظهرها، ولا يرون الحاج مفلح، لما ثبّتوا بصرهم في وجه أحمد، وجدوا أن قسماته تشي بألم كبير، وغُصّة عظيمة.

وقفت البغلة على مقربة من بيت الحاج مفلح، ثم أقبلت أم أحمد إلى البغلة يتصفح نظرها وجه أحمد تارة، والمكان تارة أخرى كأنها تبحث عن شيء، نعم إنها تبحث عن الحاج مفلح:

ـ وين أبوك؟!

لم يكن أحمد قادراً على الكلام لهول ما يجيش في صدره، ثم تجمع الناس حول البغلة، مستغربين ومنتظرين لإجابة شافية من أحمد:

ـ سالم وعليان ذبحوا أَبُوي.

أطلقت أم أحمد صرخة دبّ صداها في أركان القرية، واجتمعت النسوة عليها، وأخذ العويل الممزوج بالقهر والألم يغلّف ذلك الفضاء، انهمرت بضع دمعات على خدي أحمد حزناً وألماً، ثم عضّ على شفتيه قهراً:

ـ والله لأشرب من دم سالم وعليّان.

أخذ الرجال يتمتمون بألفاظ الوعيد والقهر على ما جرى للحاج مفلح، واقتدحت النار من عيونهم، فمقتل الحاج مفلح ليس بالأمر الهيّن، هو أحد كبار القرية برمتها ناهيك عن عشيرة العرارفة.

لم يكن أحمد قادراً على المشي، فساقه لم تجبر إلا قبل ساعات، ساعده الرجال حتى نزل عن البغلة، واقتعد صخرة كانت على جانب الطريق، أصوات عويل النساء وبكائهن تجول في المكان، ثم ازداد البكاء والعويل، وربما بكى بعض الرجال لما انكشف كيس الخيش عن جثة الحاج مفلح.

أقبل الحاج عودة على الناس متحدثاً:

ـ يا الربع... إكرام الميت دفنه، وتار أبو أحمد في رقابنا كلنا.

دون تعليق حمل الرجال جثة الحاج مفلح، وتقدموا بها إلى البيت، هناك مُدِّد في صدر الحجرة، وغُسِّل وكُفِّن، ثم ما هي إلا لحظات حتى حُمِل إلى مسجد القرية، وبعد صلاة العصر كان الحاج مفلح إلى جوار آبائه في مقبرة القرية، وعاد الرجال يملؤهم الغيظ والأسى والألم.

غير بعيد من هذا المشهد مر رجلان من البادية كانا في طريقهما لبعض القرى، فتناهى لمسامعهما أصوات العويل والبكاء عند أطراف القرية، فما كان منهما إلا أن دخلا بين الجموع، وعرفا طرفاً من الحكاية من خلال بعض أبناء القرية، كان أحدهما ذا حكمة وحسن نظر، وبعد أن عادوا من المقبرة أقبل على الحاج عودة وقال:

ـ يا حج... أتوكدوا من رجل زلمتكم، يْجوز إنها مجبرة على عيب، انتبهوا.

أحس الحاج عودة أن كلام هذا البدوي على حق، وكان قد سمع بوجود مُجبّر قريباً منهم في ناحية من نواحي وادي زيد، فأمر علياً أن يمتطي فرساً ويذهب إليه، فكان ذلك.

وسط الحيرة والدهشة والألم والأسى، أقبل فلاح على أخيه أحمد... فلاح الآن يلوم نفسه مراراً وتكراراً، قبل رأسه:

ـ يسلم راسك يا أخوي، سامحني.

كانت عيناه في تلك اللحظة غير قادرتين على الاحتفاظ بدموعهما، ففاضت على خديه خطاً حكى صعوبة الموقف وشدة ألمه، فليس من السهولة أن يبكي الرجال في ذلك الزمان، اكتفى أحمد بالصمت، وأومأ لأخيه إماءة لا تفسير لها.

بُعَيد المغرب وصل علي بمصاحبة المجبر أبو مرعي، واستقبله الحاج عودة، وذكر له أنهم يريدون التأكد من جبيرة أحمد، فلما كشف عنها:

ـ آه.... فعلاً هذي مجبرة غلط.

ـ والراي يا أبو مرعي.

ـ بعيد تجبيرها.

صرخات أحمد الأولى التي أطلقها ألماً من ساقه المكسورة اختبأت هذه المرة خلف ألمه الأكبر المتمثل بمقتل أبيه، فتحريك العظام المكسورة، وشد الجبيرة، كل ذلك لم يكن في حسبانه أبداً، كان كأنه غائب عن الوعي.

أفاقت قرية صِنِفْحَة بعد بضعة أيام على ثأر جديد، ثأر ستتوالى السنوات في طلبه، وسيفنى لأجله رجال كُثُر، فلا يُغسَل الدمُ إلا بدم، والحاج مفلح الذي قُتِل غِيْلة في مكان أمِن فيه على نفسه خلفه رجال يعرفون البندقية كما يعرفون أسماءهم، فهم عاهدوا أنفسهم على الثأر ولو بعد حين، ووجبة الانتقام تؤكل باردة.

(3)

مر الربيع كئيباً كما لم يكن عليه من قبل، المحاولات التي قام بها وجهاء العشائر للصلح باءت كلها بالفشل، فالدم لا يغسله إلا الدم، وليس من المتوقع البتة من أبناء عشيرة العرارفة أن يتنازلوا عن دم الحاج مفلح بسهولة، ولكنهم ينتظرون الفرصة المواتية لأخذ ثأرهم من عليان وسالم.

انتصبت قامة أحمد أخيراً بعد عدة أسابيع، فساقه المكسورة قد شُفِيَت تماماً، ولم يبقَ من ذلك الكسر سوى خطّ غائر في الجلد، يحكي قصة ما كان منذ مدة ليست بالبعيدة، ويرصد ثأراً لن يغيب عن بال أحمد وفلاح وأبناء عمومتهما، كلما نظر أحمد إلى ذلك الأثر في ساقه انتابته ارتعادة تدبّ في أوصاله، وتسري في عروقه، إنه لن يهدأ له بال، ولن تطمئنّ له نفس حتى يأخذ بثأر أبيه.

تلك الصورة البغيضة التي تقتحم عليه خياله كلما أطرق مفكراً، أو تغتال أحلامه حينما يخلد إلى النوم، صورة أبيه وقد أرداه سالم قتيلاً تصحبه ليلَ نهارَ، هو يعلم علم اليقين أن عقله لا يريد أن ينسى الثأر، وأن هذه الخيالات من شأنها أن تزيد في إصراره على السعي قدماً في طريق الانتقام، كل شيء يحيط به يُذَكِّرُه بذلك الثأر، فأشجار الزيتون التي تعرف الحاج مفلح تدفعه للثأر، وعين الماء الذي يروي عطش أبناء القرية يغني أغنية الانتقام، ودروب القرية التي طالما سار فيها الحاج مفلح تفوح برائحة الذبح

والقتل، هذا الربيع الذي بدأ جميلاً لم يبقَ على جماله، فالدنيا كلها في عيني أحمد انقلبت مظلمة كئيبة، ولا يشفي غليله إلا الانتقام والثأر.

أما عليّان وسالم فقد تسلحا بالحذر، ولاذا بالترقب والانتظار، فقد وعدهما وجهاء العشائر بأن يسعوا في الصلح ما استطاعوا، غير أن مضيّ شهرين أو ثلاثة على مقتل الحاج مفلح دون أن يحرّك عشيرة العرارفة ساكناً منحهما شيئاً من الطمأنينة، وربما ظنّا في لحظة ما أن عشيرة العرارفة قد تقبل بالصلح يوماً ما، خصوصاً أن جالبي الأخبار لم يأتوا بما يشير إلى تحرّك صريح من عشيرة العرارفة في سبيل الأخذ بثأرهم.

كان أحمد ومن يحيط به من عشيرة العرارفة يترصدون الأخبار، ويبحثون في وجوه المتنقلين بين القرى عن خبر يشي بفرصة مواتية للانقضاض على عليان وسالم، فهم يحسبون كل خطوة على أنفسهم، كما يحسُبون كل نفس يتنفسه عليان وسالم على أنه زيادة لهم في الحياة يجب أن تنقطع.

انقضى الصيف، ودبّت رياح الخريف العاصفة والجافة والباردة في دروب القرى، والتهبت المواقد بالنار، كما ازدادت نفس أحمد اشتعالاً لتحقيق الثأر، فكل يوم لا يمنحه فرصة لقتل عليان أو أخيه سالم لا يعدّه من أيام عمره، ثم أحسّ أن أيام الخريف لن تبخل عليه بهذه الفرصة.

تأهَّب أحمد ذات صباح للذهاب إلى بستان الزيتون كي يتابعوا قطاف ثماره، ثم انطلق بصحبة فلاح ومن معهم يشقون دروب القرية قاصدين البساتين، غير أن سليمان ابن عمه استمْهَلَه:

ـ الله يصَبْحك بالخير.

ـ حيّا الله سليمان... وشلونك.

ـ الحمد لله... أدّي أسولف معك شوي.

ـ سولف.

عرف أحمد أن سليمان يقصد الاختلاء به، والحديث معه على انفراد، فأومأ لمن معه بإكمال طريقهم نحو حقل الزيتون، وبعد أن ابتعدوا قليلاً:

ـ سولف الحين.

ـ رُحت امبارح أعصر زيتون عند حمدان، وكان هناك زلام اثنين من الشعايلة بسولفو مع بعضهم، ما عرفوا إني من العرارفة، سمعت واحد منهم بقول إنو عليان وأخوه سالم بحرثوا في أرضهم اللي في النقعة.

تملّك أحمد في تلك اللحظة شعور بالرغبة في أخذ الثأر، إنها فرصة لا تعوض للإجهاز على سالم وعليان، ثم تابع سليمان قوله:

ـ وش رايك نِطلع عليهم ونوخذ بتارنا.

أطرق أحمد قليلاً، وبدا أنه يغوص في بحر من الأفكار، إنه يريد من هذه الفرصة أن تكون قاضية، ولا يريد التعجّل فيها فتبوء بالفشل:

ـ اسمع يا سليمان، لا تقول لناس عن هلخبر، عشان ما يكون في واحد يوصل الخبر لعليان وسالم، وموعدنا الليلة بعد المغرب عندي في الدار، وجيب معاك جبريل والأسود.

أومأ سليمان بالموافقة لأحمد، ثم توادعا، وانطلق كل منهما في طريقه.

لم يكن أحمد يحتمل الانتظار في ذلك اليوم، أحس أن ساعاته ودقائقه تمر كالحجارة الثقيلة على قلبه، وفي حين خِلوةٍ بينه وبين فلاح في بستان الزيتون أخبره بالخبر، فاقترح عليه فلاح أن يذهب عليّ وحامد معهما، فهما ابنا عمهم كذلك، ووجودهما في هذه العملية مهم، فلم يمانع أحمد من ذهابهما، وأثنى على رأي فلاح.

بعد أن توارت الشمس في الحجاب في ذلك المساء، كان الرجال السبعة قد تجمّعوا في بيت أحمد: فلاح وسليمان وعلي وجبريل والأسود وحامد، وفي مقدمتهم أحمد، كانت الخطة في مرحلتها الأولى تقضي بخروج الرجال السبعة بعد العشاء سيراً على الأقدام حتى لا يحس أحد بالدواب إذا انطلقت، فيكون له اتصال بعليان بصورة أو بأخرى، فيصله الخبر، فتفسد خطة الثأر التي تدور في رؤوسهم، وكل رجل من هؤلاء السبعة يأخذ بندقيته معه، سيحتاجون من الوقت ما لا يقل عن ستّ ساعات سيراً على الأقدام، وعليهم أن يكونوا جاهزين لكل الاحتمالات، وحينما يَصِلون إلى الأرض التي يحرثها عليان وأخوه ستكتمل بقية فصول هذه الخطة.

فَصْل الخريف في منتصفه، والليل الطويل يمنح المتعطشين للثأر فرصة لترتيب أمورهم في هذه الليلة، ثم امتلأت نفوس الرجال بالغضب، ودارت عيونهم في محاجرها تترقب اللحظات القادمة بتأهّب يتربص خلف سواعدهم وبنادقهم، فسواد ذلك الليل لن يقف في طريقهم، وبرودة الجو التي تزداد شدتها مع اشتداد الريح لن تثنيهم عن متابعة خطتهم، فالنار التي تغلي في صدورهم أشدّ من أن تطفئها الظلمة والبرد، ثم اجتمع الرجال بناحية من نواحي القرية، ولما تأكدوا من قدوم الجميع، وأن كلاً منهم يحمل بندقيته معه، انطلقوا سائرين في طريق تحقيق ثأرهم، وشفاء غليلهم.

كان المسير ليلاً، وكان القمر في أواخر الشهر، فالظلمة شديدة، والبرد قارص، والسير على الأقدام يزيد من صعوبة المهمة، وكان لا بد من المسير على الأقدام، حتى تحافظ الخطة على سريّتها... الرجال السبعة يتبع بعضهم بعضاً في الدرب الضيق بين الحجارة في سفوح جبال تلك المنطقة، ودون سابق إنذار اشتعلت السماء بضوء هائل، فصار الليل كالنهار في شدة إضاءة ذلك الشيء، إنه نيزك اخترق السماء، وقدّر الله أن يكون هبوطه على هذه المجموعة من الرجال، ثم ارتطم النيزك بالأرض، وسُمِع لارتطامه صوتٌ هائلٌ، لم تزل عيون الرجال السبعة مغمضة لسطوع ذلك الضوء الذي اقتحم عليهم سواد ليلتهم تلك.

تناثر الرجال مبتعدين عن النيزك، ولحسن حظهم لم يُصِب منهم أحداً، حينما ارتطم النيزك بالأرض صاحوا: يا الله... يا الله، ثم ما لبثوا أن هدأت نفوسهم، ورأوا

تلك الكتلة النارية وهي ترقد صامتة على وجه الأرض، لقد قسمهم النيزك قسمين، أربعة رجال في المقدمة هم: فلاح وسليمان والأسود وجبريل، وثلاثة من ورائه، وهم: أحمد وعلي وحامد.

ما زالت صدورهم تلهث لهول ذلك المنظر، ثم اقتربوا منه رويداً رُويداً، كان النيزك لا يزال محتفظاً بحرارته العالية، وما زالت بقية من ضوئه تلمع في عيون أولئك الرجال.

ـ وشّو هذا.

ـ نِجِم طاح من السما.

ـ نِجِم؟!

ـ آه... نِجِم.

ثم لاذ الجميع بالصمت لبرهة، وكأنهم قد أطرقوا مفكرين، ثم قطع حامد عليهم صمتهم ذاك:

ـ يا رجال والله هذي إشارة من رب العالمين... والله هذا نذير شؤم... يا شينين خلينا نِرجع.

فرد عليه فلاح:

ـ إنتَ شكلك خِفْت.

ـ ما خِفت... وإنتو عارفين إني ما بخاف... لكن هذا النجم وراه شؤم... يا عيال عمي ردّوا عليّ وخلينا نِرجع.

ـ والله ما بنِرجع إلا براس واحد من الاثنين، يا عليان يا سالم...

ـ أنا راجع.

ـ يا خوّاف.

ـ والله ما أنا خوّاف، أنا مريض.

لقد أحسّ حامد أن هذا النيزك الذي تقصّدهم وسط هذا الفضاء الفسيح وراءه رسالة من الله سبحانه، وكان فيه شيء من العقل، ولا يندفع خلف قوة الشباب التي يتسلح بها الجميع، وقد جعل من المرض سبباً يتعلل به حتى يرجع، وهذا ما كان، فقد عاد حامد إلى صِنِفْحَة لإحساسه أن هناك خطباً ما سوف يحدث، وأكمل الرجال الستّة طريقهم إلى أرض عليان لإنجاز خطتهم كما اتفقوا عليها.

خطوات الرجال التي تسير في ظلمة ذلك الليل تلتهم ساعاته ودقائقه، وصوت أنفاسهم يتماشى مع تلك الخطوات الواثقة التي تقودها قوة الشباب وعنفوانه... وصلوا إلى أرض عليّان، بصيص النور الذي يلتمع في ظلمة ذلك الليل من القمر المتأخر، ومن نجومه المتلألئة مكّنهم من رؤية الحد الفاصل بين الأرض المحروثة والتي لم تُحرَث بعد، وجثّة المحراث تستلقي عند زاوية الأرض المحروثة، وكتلة من الصخور على بعد عشرين متراً تمنح الرجال فرصة للتخفّي.

تأمل أحمد المكان، ودار فيه غير مرة، وأعمل تفكيره واضعاً خطة محكمة – في ظنه – للخروج منتصرين، وشاركه الرجال الخمسة في التخطيط، وبعد وقت يسير من

التفكير، حدد أحمد ثلاثة أمكنة لاختباء الرجال، أما المكان الأول فيختبئ فيه أحمد وعلي، وهو خلف الصخور الكبيرة التي تبعد عن المحراث حوالي عشرين متراً، في حين يختبئ سليمان وجبريل وراء سلسلة من الحجارة التي جُعِلت حداً للأرض، أما الأسود وفلاح فيختبئان خلف شجرة من الزعرور التي تجثم غير بعيد عن مكان أحمد وعلي، وبهذه القسمة ضمِنَ أحمد أن عليان وسالماً لن يفلتا من قبضة هؤلاء الرجال، فحيثما دارت وجوههم سيجدون بندقية من بنادق العرارفة بانتظارهم.

لا يُسمَع في سكون ذلك الليل إلا أنفاسُ أولئك الرجال الستة، وهَمْهَمةُ الريح بين فينة وأخرى، ثم أفصح أحمد عن خطته، كانت الخطة تقضي بأن يمكث كل رجلين في مكانهما المحدد لهما، وأن الرصاصة الأولى تنطلق من أحمد الذي يمكث مع علي خلف الصخور مقابل المِحراث، وغالباً ستكون تلك الرصاصة موجهة للأخ الذي سيأتي لأخذ المحراث، وبعد انطلاق هذه الرصاصة يخرج الجميع من مخابئهم، ويطلقون الرصاص تجاه الأخ الثاني، ومن ثم ينسحب الجميع كلٌّ وحده، ويهربون من المكان، والمُلتقى سيكون في المغارة البيضاء التي يعرفونها جميعاً، ثم نَبّهَ أحمد الرجال بألّا يتأخروا في الهروب من المكان، وألا يبحث أحدهم عن الآخر عند الاشتباك، فالبحث قد يوقعهم في ورطة، اتفق الجميع على هذه الخطة، ثم توزعوا على مخابئهم التي حددوها بانتظار اللحظة الحاسمة.

وقت قصير يَفْصِل الجميع عن خطوط الفجر الأولى، السكون يهيمن على المكان، والرجال الستة مستعدون لما هو آتٍ، حرارة الثأر تدبّ في شرايين أحمد، فالشهور التي مضت بعد قتل الحاج مفلح زادته حقداً، وملأت نفسه بالرغبة الجامحة للإجهاز على أحد الأخوين، الذكريات المريرة التي لم تغادر عقله ترتسم الآن في مخيلته، وبندقيته ذات الخمس طلقات فاغرة فمها نحو ذلك المحراث، يعد اللحظات بفارغ الصبر، ويحسب دقات قلبه كما لو أنها ثوانٍ تمرّ وتنقضي في سبيل شفاء غليله من عدوّيه عليان وسالم، ربما أحسّ في لحظة ما أنهم قد أُقْحِموا في هذا الصراع بلا سبب ولا جريرة ارتكبوها، ولكن ما وقع حصل وانتهى، ولا سبيل للتراجع الآن، كان يقول في نفسه في أيام مضت أنهم جميعاً يدفعون ثمن غلطة مفضّي، ثم حرّك رأسه يمنة ويسرة بقصد مزيد من الانتباه والاستعداد.

لمّا يعرف سواد الليل خيوط الفجر البيضاء بعد... الرجال الكامنون بكل سكون خلف مخابئهم ينتظرون اللحظة المناسبة... مضى عليهم الآن ما يقرب من يوم بأكمله دون أن تعرف عيونهم النوم... والتعب يتغلغل في أجسامهم... والبرد القارص دفعهم للتَكوّمِ في تلك المخابئ طلباً للدفء... كل ذلك كان مسيطراً على تلك الأذهان والأجسام المنهكة... وعلى غير تقدير منهم أخذوا ينامون واحداً تلو الآخر دون أن يشعروا... فقد أخذ منهم التعب منتهاه... في لحظة ما كان الجميع قد أغفوا وناموا، ولم يبقَ مستيقظاً سوى أحمد... ولم يعلم بنوم الرجال من حوله، ففي تقديره أنهم

مستيقظون... غير أن ذلك لم يكن سوى تخمين منه لم يطابق الواقع البتة... بل إن أحمد نفسه أحسّ برغبة جامحة في النوم، ولكن كلما انطبقت جفونه تنبَّه، وفركها، فهذه الفرصة لا تتكرر، وعليه أن يصمد.

أقبل الفجر بخيوطه البيضاء على المكان، وأخذ النور يطرد سواد الليل شيئاً فشيئاً، جثّة المِحراث التي ترقد عند منتهى الأرض المحروثة صارت واضحة المعالم لأحمد، والحد الفاصل بين الأرض المحروثة وغير المحروثة بدا جلياً لا تنكره عيناه... لحظة الحسم تقترب كلما ازداد نور الفجر في المكان...

الآن صار بإمكان أحمد أن يحدد كل معالم المكان، فنور الفجر يفضح كل شيء أمامه، وها هو الصبح يتنفس من بعيد... من الأفق البعيد بدا شبحا رجلين اثنين يسيران باتجاه المكان... دقات قلب أحمد تزداد شيئاً فشيئاً... حتى بلغ قلبه حنجرته... إنه يراهما من حيث لا يريانه.

دخل عليان وأخوه سالم قطعة الأرض، وفي لحظة ما توقف سالم عن المسير:

ـ علامك.. روح جيب السكة.

ـ بتعرف يا عليان... والله قلبي مو مرتاح.

ـ وش في... علامك.

ـ ما بعرف.

ـ ما عليك... روح جيب سِكّة الحراث غير وأنا جايب الفرس من مربطها، وخلينا نبدا.

تردد سالم لبرهة من الوقت، ولكنه لم يلبث أن اقتنع بكلام أخيه عليان، وتوجه بخطوات واثقة مسرعة باتجاه المِحراث الذي يستلقي غير بعيد عنه... لم يدرِ أن تلك الخطوات المتسارعة تقوده إلى حتفه، وأنها آخر خطوات يسيرها في حياته، أما عليان فقد أدار وجهه باتجاه مربط الفرس التي استيقظت لتوِّها بعد أن رأتهما قادمين... لم يكن هناك ما ينغِّص هدوء ذلك الصباح الخريفي... فالأمور كلها على ما يُرام من وجهة نظر عليّان وسالم.

أقبل سالم بوجهه على أحمد المختبئ خلف صخرة كبيرة... بندقيته مصوّبة باتجاه سالم، وهو ينتظر اللحظة التي يصل فيها إلى مرمى الهدف، لم تزل بعض الظلمة مُعَشِّشَة بين خيوط نور الفجر... وسالم يرتدي معطفاً طويلاً بلون أسود، فرؤيته ليست صافية تماماً بالنسبة لأحمد، هو يراه نعم، ولكن رؤيته ليست بالدقة المناسبة... ثم وصل سالم إلى المِحراث، ولمّا همّ بأخذه عن الأرض، انفتح معطفه الأسود ليكشف عن ثوب أبيض ناصع... كان بمثابة ضوء انبلج أمام عيني أحمد المتأهب، إنه الثوب الذي وشى بسالم وأعان أحمد على دقة التصويب... ضغط أحمد على الزناد... فاقتحم صوت الرصاصة سكون ذلك الفجر... أحس أحمد أن الطلقة على سرعتها بطيئة في مسيرها، ثم ما لبثت أن استقرّت في صدر سالم، فارتمى على الأرض، وانفجر الدم مُلطِّخاً ثوبه الأبيض.

لَمّا سَمِع عليّان صوت الرصاصة أدار رأسه باتجاه أخيه... لم يرَه واقفاً، بل رآه قد ارتمى على الأرض.. وأخذ يستنفد آخر ما بقي له من الأنفاس في هذه الدنيا... كان عليّان يحمل بندقيته التي ملأ جوفها ببضع رصاصات... وقد مُنِح بعض الوقت كي يرتب نفسه... اتخذ مكاناً مناسباً وتأهّب... كل ذلك حصل في بضع ثوانٍ.

وما إنْ ثارت الرصاصةُ الأولى حتى دوّى صداها في آذان الرجال النائمين... أفاقوا فزعين من تلك الإغفاءة التي هيمنت عليهم منذ ما يقرب من ساعة.. لكَ أن تتخيّل مقدار الفَزَع والصدمة التي كانوا عليها حينما أفاقوا... أصابت عقولهم لَوْثةٌ من الخِفّة جعلتهم غير قادرين على التمييز بين هذا وذاك، وغشيت أذهانهم حالة من اللاوعي دفعت كل واحد منهم لتصويب بندقيته تجاه كلّ طيف أو خيال في المكان... خصوصاً أن الصبح لمّا ينبلج بعد... فصار رجال العرارفة في لحظة ما يطلقون النار على أنفسهم دون أن يشعروا أو يُحسّوا... وفي الوقت ذاته فقد هبَّ الرجال من مكامنهم دون وعي أو تركيز، مما جعل الفرصة مواتية لاقتناصهم واحداً واحداً من عليّان الذي أحسّ بسوء التخطيط والتقدير لدى هؤلاء الرجال، لقد كان متمكناً من رؤيتهم بوضوح... فصوّب بندقيته نحو سليمان الذي لم يكن بعيداً عن جثة أخيه، وبرصاصة واحدة أسكنها رأسَهُ فأرداهُ قتيلاً... ثم تتابعت رصاصاته نحو رجال العرارفة الآخرين الذين تناثروا مثل حزمة من العِصيّ انحلَّ رباطُها.

احتاجَ رجالُ العرارفة مدة ليست يسيرةِ من الوقت ريثما تنبّهوا لما يجري، لحظتها كان الوقت يوشك أن يُجهِز عليهم، فأغلبهم قد أصابه الرصاص، منهم من ارتمى أرضاً يغالب سكرات الموت، ومنهم من أدبر مولّياً غير قادر على اتخاذ القرار المناسب في هذا الموقف العصيب... أما عليّان فقد كانت الفرصة مواتية له لإيقاع أكبر عدد من القتلى من هؤلاء الرجال... كان أحمد هو وحده المتماسك لأنه لم ينمْ، وكان هو وحدَه القادر على اتخاذ قرار مناسب، في تلك اللحظات، صاحَ بأبناء عمومته منادياً ومحذِراً لهم، فردوا عليه.

ـ وين إنت يا أحمد.

فكان عليان يردّ عليهم مستغلّاً هذا الارتباك:

ـ تعالوا تعالوا هَي أنا.

كان بعضهم يُقبِل على صوت عليّان ظاناً أنه أحمد... وكان عليّان يتلقّفهم بالرصاص كلما استمهلهم صوته الذي خدعهم به...

مضى ما يقرب من ساعة وصوت الرصاص ما فَتِئ يدوّي في المكان، حتى تمخضت تلك المعركة عن ثبات أحمد وعليان فحسب وجهاً لوجه... أما سليمان وعلي والأسود وجبريل وفلاح فما بين قتيل وجريح، والذي استطاع الإفلات فرّ هارباً باتجاه المغارة البيضاء التي اتفقوا على اللقاء فيها بعد انتهاء القتال...

ها هو المكان يضيء بضوء الشمس، وأحمد وعليان ما بين كرّ وفرّ... هذا يولّي الآخر دبره ريثما يُلقم بندقيته بضع رصاصات، وذاك يتبعه مطلقاً عليه النار... ثم تنقلب الآية، ويصبح المطلوب طالباً والطالب مطلوباً... ثم أصاب عليان أحمدَ في ساعده الأيسر، لكنها إصابة طفيفة لا تُذكَر... في لحظة ما وضع أحمد يده في جعبة الرصاص، فخمَّنَ أنّ ما بقي معه لا يزيد على تسع رصاصات فحسب، فأخذ يباعد المسافة بينه وبينَ عليّان، وكذلك كان الحال بالنسبة لعليان، حتى تحاجز الرجلان، وابتعد أحمد قاصداً المغارة البيضاء التي تحتاج نصف ساعة تقريباً جرياً بلا توقف.

تلقّفَ عليّان أنفاسه... ثم استمهلَ خطواته المتسارعة طيفُ أحمد الذي يختفي وراء الأفق، فأيقن أن القتال قد خمد، وأن الرصاص قد هدأ، أدار وجهه باتجاه أخيه وقتلى العرارفة الذين تناثروا هنا وهناك... مشى بخطوات متثاقلة، لمّا وصل جثة أخيه كان دمه قد برد... وكان الموت قد أقام على صفحة وجهه... صمت لبضع ثوانٍ، ثم أفاض على وجه أخيه بطرف معطفه الأسود الذي كشف صدره للرصاص، وقبل أن يغطيه بذلك المعطف انهمرت بضع دمعات استقرت على تلك الجثة الباردة... ثم أحسّ بأنين في المكان، لمّا التفتْ كان فلاحَ لم يزل يصارع الموت، ويغالب سكراته، هُرِع إليه، ثم ضغط على رقبته وأسكت تلك الأنفاس إلى الأبد.

لم يكن وابل الرصاص الذي تطاير في تلك البقعة من الأرض ليخفى على أهالي المناطق المحاذية، ومن بينهم أبناء عشيرة الشعايلة الذين كان وصولهم بعد انسحاب

أحمد بوقت قصير... كما سَمِع ذلك الوابل عجوز وحفيدها يقصدان شمال الطفيلة، وقد كانا على جملين لهما آتيين من القادسية بعد زيارة أحد أقاربهم، فقصدوا صوت الرصاص كما قصده أناس كثُر...

وصل أحمد إلى المغارة البيضاء، كان علي والأسود قد سبقاه إلى ذلك المكان... ثلاثتهم قد أصيبوا بالرصاص، غير أن إصابة الأسود كانت بليغة، وما هي إلا لحظات حتى أُغشي عليه، ثم أفاق... كان في حالة يُرثى لها... أحمد وعلي يحاولان مساعدته، وفي الوقت ذاته يضمدان جراحهما، بين فينة وأخرى يسترق أحمد النظر نحو الأفق، لعلّ رجلاً من رجال العرارفة يُقبل إليهم، هو حبل من الأمل استوثق به أحمد سرعان ما وهن حتى انقطع بمرور الوقت، فهو الآن على يقين أن الرجال الثلاثة: فلاح وسليمان وجبريل قد قُتِلوا، ولو كان فيهم أحياء لأقبلوا إلى هذه المغارة.

في الناحية الأخرى وصل رجال الشعايلة وبعض العشائر الأخرى التي تناهى لمسمعها صوت إطلاق النار إلى المكان... كان ممن وصل تلك العجوز وحفيدها، تجمهر الرجال في المكان، ثم سُمِع صوت عليان بعد أن التزم الصمت لوقت قصير:

ـ إشهدوا يا ناس... العرارفة ذبحوا أخوي... وأنا أخذت تارُهْ من ثلاثِة منهم.

ثم أقبلوا على جثة سالم، وحملوها على ظهر فرس، وانطلقوا عائدين إلى ديارهم للشروع بدفن قتيلهم دون أن يبالوا بتلك الجثث الثلاث التي تمكث غير بعيد... إنه

أمر لا يعنيهم، بعد وقت قصير لم يبقَ في المكان سوى تلك العجوز وحفيدها... وقفا متأملَين هذه الحادثة التي أوقعت هؤلاء القتلى جميعاً.

خمَّنَ أحمد وعلي أن الأمور قد هدأت... فها هي الشمس تسلك طريقها في كبد السماء، وليس من المتوقع أن رجال الشعايلة ما زالوا في مكان الاقتتال... تركا الأسود في المغارة وحده، ثم سارا بحذر نحو المكان، هي مدة ليست بالطويلة تلك التي أمضياها في الطريق، ثم أطلّا على المكان من بعيد، رأيا العجوز وحفيدها، ورأيا الجثث إلى جوار بعضها بعد أن كان الشاب الغض حفيد العجوز يفكر بدفنها... أقبلوا عليهم، هَمَّا بالصراخ لشدة ما حلَّ في نفوسهم من الألم، ولكنَّهما تماسكا... واكتفيا بذرف الدموع... فهناك متّسع كافٍ من الوقت للبكاء بعد الوصول إلى صِنِفْحَة، وبعد أن وقفا غير بعيد ظنّت العجوز أنهما جاءا للتأكد من مقتل أصحابهما:

- إنتو معاهم.

- ... آه والله يا حجة.

- يا ولدي لويش سويتو في حالكو هيك.

اكتفيا بالصمت، ثم مسحا دموعهما:

- يا حجة تعيرينا الجميلين عشان نوخذ الجنايز لصِنِفْحَة.

- خذوهن واحنا بنمشي معكم على رجلينا لصِنِفْحَة وبعدين بِنْكَمِّل طريقنا.

حُمِل اثنان من القتلى على أحد الجملين، وحُمل الثالث على الجمل الثاني، ثم انطلق الجميع في طريق العودة... كلّ فريق أخذ الجثّة التي تخصّه، ولم تزل جثة المحراث لم تبرح مكانها لم تصلها الأيدي... فاليد التي همّت في الصباح لأخذها لم يُمهِلها الموت كثيراً...

اتجه الركب باتجاه المغارة البيضاء... الأسود لم يزل يعاند النزيف الذي استمكن من دمائه، هي أيام ثلاثة بقيت له في الحياة، سيمضيها بين أهله في صِنِفْحَة... ومن ثم سيلحق بأبناء عمومته الذين قضوا اليوم... حُمِل الأسود على الجمل، ثم أخذ الجملان يسيران باتجاه صِنِفْحَة، ما دار من أفكار وآلام وأحزان في نفس أحمد وعلي كان كافياً لتقصير المسافة واختصار زمنها، فها هي بيوت أهل صِنِفْحَة تبدو من بعيد، كان أحمد يرغب أن تكون العودة على غير هذا الحال... ظنّ أنهم سيعودون برأس سالم وعليان، ولكنهم عادوا بمزيد من الأسى، وبثأر جديد سيثقل كواهلَهم لسنوات آتية.

ضجّت صِنِفْحَة بالعويل والبكاء... وبدا الأفق حزيناً كئيباً... توشّح الخريف بوشاح الحزن في تلك القرية الريفية الصغيرة... حينما مُدَّدت الجُثث في بيت أبي أحمد تذكّرت أم أحمد ذلك الخيال الذي رأته صبيحة اليوم الذي قُتِل فيه أبو أحمد... ها هم الرجال ممدّدون في الحجرة الكبيرة... ثم غُصّ المكان بالرجال والنساء الذين أذهلهم ما حصل لخيرة شباب عشيرة العرارفة، أكثرهم هيمنت عليه الصدمة، إذ لم يكن يعرف بخروج هؤلاء الشباب...

ارتسمت ملامح الدهشة والذهول على وجوه الأطفال الصغار حينما رأوا العيون الباكية تحفهم من كل مكان... فعيسى الأخ الأصغر لسليمان، وعبد الرحمن الأخ الأصغر لجبريل لمّا يبلغا الخامسة بعد... لم يكن يتجاوز فهمهما في تلك الأيام أبعد من أن إخوتهما الكبار لن يروهما بعد اليوم... وأنهم سيرقدون تحت التراب للأبد... الأيام القادمة ستتكفل بإفهامهم فكرة الثأر، والسنوات المقبلة ستُرْضِعُهم لبن الانتقام.

ثم تعجّل الجميع في تغسيل القتلى وتكفينهم... فالشمس التي تنحدر رويداً رويداً باتجاه المغيب لا تمنحهم الوقت الكافي لِيُشبِعوا نواظرهم من أبنائهم قبل أن يواريهم الثرى... ثم صُفَّت الجنائز إلى جوار بعضها، وقف رجال صِنِفْحَة جميعاً للصلاة عليهم، لم يغب منهم أحد، ثم دُفِنوا إلى جوار بعضهم، كما تجاوروا في الصباح في مكامنهم بانتظار الثأر، ها هم يتجاورون في المساء في قبورهم.

مرّت أيامٌ ثلاثة مثقلة بالألم، تفوح فيها رائحة الموت، وتذوي خلالها نفوس أهالي صِنِفْحَة قهراً وحزناً... لم يزل الأسود يصارع الألم، حتى أفاقت القرية على نبأ موته، لم يكن ذلك النبأ مستغرباً، فقد ظنّ كل من رآه أنه ميّت لا محالة، ولا يفصله عن الموت سوى وقت قليل، وهذا ما كان، ثم دُفِن إلى جوار فلاح وجبريل وسليمان.

ليس من خاسر أكبر من أم أحمد في هذا الثأر... قبل شهور ودعت الحاج مفلح، واليوم تودّع ابنها فلاح... وابنها أحمد تدور الحيرة في رأسه، ولم يتمكن من إطفاء نار ثأره، فبعد أن كان ثأره لأبيه فحسب... ها هو أمام ثأر كبير لأبيه وأخيه وأبناء

عمومته، وصار قتل عليّان هدفاً لا يتقدم عليه أي هدف آخر، الأيام لا بل السنوات المقبلة حُبلى بمطاردة عليّان، ونار الثأر تزداد جذوتها، ويستعر لهيبها في صدره، والبندقية التي كانت مصوّبة تجاه رأس عليان صارت بنادق... فلو أن الأمر بيد أحمد لقتل عليّان ثم أحياه، ثم قتله، ثم أحياه، ثم قتله، حتى يشفي غليله ويُطفئ النار التي تلتهم صدره وتحرق فؤاده.

(4)

أفاقت عشيرة العرارفة بعد أيام قلائل على هول الفاجعة التي حلّت بهم، فقد استهلك الموت خيرة شبابهم... إنها فاجعة أذهلت أهالي صِنِفْحَة بأكملها... سيتمكن الدهرُ من أذهان عدد كبير من هؤلاء الفلاحين، فينسيهم هذه المصيبة، ولكن لن يتمكن من محوها من ذاكرة أحمد وعلي وغيرهما من أبناء عشيرة العرارفة... فالألم الذي يسكن صدورهم أشدّ من أن يُسكته توالي الشهور والسنوات.

يعرف أحمد تماماً أن الثأر الذي كاد أن ينتهي قبل أيام تجدد وتضاعف، وعليه الآن أن يتابع مسيرته، صحيح أن عليّان وحيد ليس له أخٌ بعد سالم، ولا أبناء عمومة، ورجل واحد لا يكفي بديلاً لأبناء عمومته الذين قضوا، ولكن رأس عليان بحد ذاته غنيمة كبيرة، ومقتله يعني انقطاع نسله ونسل آبائه للأبد، وهذا ما يطمح أحمد لتحقيقه... ولكن تحقيق هذا الثأر في الأيام الراهنة قد يكون مجازفة كبيرة، فعليّان حريص كل الحرص، ومتأهّب في كل لحظة بعد الذي جرى، فهو يعلم علم اليقين أن أبناء عشيرة العرارفة لن يتركوه دون السعي لقتله والأخذ بثأرهم.

حينما يُحدّث أحمد نفسه بالثأر، يغلي الدم في عروقه، وتتسارع أنفاسه، وتزداد نبضات قلبه... الغِلّ الذي يستحكم من نفسه تجاه عليان يقض مضجعه، ويطرد النوم عن عيونه... إنه يتمنى لو أنه يصل إلى عليّان في لحظة واحدة ويكتم أنفاسه ويقضي

عليه تماماً، ولكن سرعان ما يستوقفه عقله ويحتجز كل هذا الاندفاع خلف التأنّي والصبر، إنه لا يريد أن يتسرع هذه المرة... فليس هناك من مجال لخسارة مزيد من الرجال، ولا بد أن ينتهي هذا الثأر بمقتل عليان فحسب.

لم تزل محاولات وجهاء العشائر في المنطقة حاضرة لإيقاف نزيف الدماء التي تستمدّ فورانها من فكرة الثأر الحاضرة في عقول العرارفة، والسعي كل السعي لحقن دماء جديدة ربما تُراق... إلا أن هذا الطموح لم يجد أذناً صاغية عند رجال العرارفة، خصوصاً عند أحمد، فالثأر منوط به قبل الجميع... ذات مساء بارد ازدحمت حجرة بيت أحمد – بيت أبيه سابقاً – بهؤلاء الوجهاء، وأخذوا يعرضون عليه القبول بالدية... وإصلاح ذات البين... تركهم حتى أتموا كلامهم:

ـ ... وش أقول للناس ولعيالي بس يكبروا... وش أقول لإخوان سليمان وجبريل... أقول ليهم إني تركت تارنا وبعت دم أبوي وأخوي وعيال عمي...

ـ هذا مو بيع... هذا صلح.

ـ لا بيع ونص... الدم ما بغسلُه إلا الدم.

هذه المحاولة لم تكن الأولى، ولن تكون الأخيرة، فقد سبقتها محاولات عدة، وسيتلوها أخرى، ولكن في كل مرة كان أحمد ومن حوله من رجال العرارفة يزدادون إصراراً على أنهم لن يصالحوا الشعايلة إلا برأس عليّان، ولن يتركوا دماء أهلهم وأبناء عمومتهم تضيع سُدى، هذا الإصرار على الثأر جعل عليّان أكثر حرصاً وانتباهاً، وهو

أمر لم يكن ليخفى على أبناء العرارفة، حتى إنهم لم يتمكنوا من تحديد مكان عليان في الأشهر الأولى التي تلت حادثة أرض "النقع"، ولم يستطيعوا الوصول لأي معلومة تمكنهم من وضع خطة للإجهاز عليه... هذا الانتظار والتأخّر في تحقيق الثأر زاد من لهيبه في نفس أحمد ومن حوله... وصاروا لا يرون في الدنيا هدفاً غير قتل عليّان والقضاء عليه.

يحاول أحمد أن يصل إلى أي معلومة تقوده إلى مكان عليّان، وهو ما كان عسيراً في أغلب الأحيان، فالكل في عشيرة الشعايلة حريص على عدم التفريط بأي كلمة، فربما كانت كلمة واحدة بثمن دماء كثيرة.

عندما يُقبِلُ الصيف بشمسه اللاهبة، ونهاره الطويل، تُهرع العشائر من صِنِفْحَة إلى الجبال الراقدة في الجنوب، وتُضرب بيوت الشعر على جنبات تلك الجبال، وتأخذ الأغنام نصيبها من بقايا الحصاد الذي تركته أيدي الحاصدين، وتزدحم مساءات تلك الأيام بالسمر ورائحة الحليب وأصوات كؤوس الشاي الفارغة، لم تكن هذه الطقوس حكراً على أهالي صِنِفْحَة فحسب، بل كانت جُل العشائر الأردنية التي تقطن القرى تفعل الأمر ذاته، ويسمونه الربيع، مع أنه يمتد من منتصف شهر الربيع إلى نهاية الصيف، وغالباً ما يكون الهدف من هذا الترحال الانتقال من المناطق الحارة المنخفضة، إلى المناطق اللطيفة المرتفعة، تماماً كما يحصل في الشتاء عند الارتحال إلى الأودية الوعرة المتاخمة لغور الأردن طلباً للدفء، ولكن بصورة عكسية.

يدير أحمد ظهره للشمس، محاولاً تجاهل لهيبها اللاذع في شهر تموز قُبيل الظهيرة، ويمدّ بصره في تلك البقاع الجبلية، وفي لحظة ما اقتحم عليه علي صمته ذاك، وبدد سكونه:

ـ بتعرف معاي خبر وين الشعايلة مربّعين.

ـ بالله عليك؟

ـ إي والله...

ـ مين قال لك؟

ـ شفت رعيانهم من بعيد في تِلْعة الخيل... وراقبتهم لما فاضوا عند المغرب فوق ميّة السراب.

ـ يعني شفت منازلهم؟

ـ آه شفتها.

عرف أحمد مكان منازل عشيرة الشعايلة، وتخيّل موقعها كما لو أنها أمامه... وها هي الفرصة تلوح من جديد لقتل عليّان، إنها الفرصة التي لم تسنح له منذ شهور مضت، ويجب عليه أن يتحرك بصورة صحيحة، كتم الخبر في نفسه، ولم يخبر حتى عليّاً بما يجول في خاطره، لئلا يقع في خطأ يدفع ثمنه غيره من أبناء عشيرته.

عزم أحمد على السعي طلباً للثأر في الليلة الآتية، إنها ليلة يصحبه فيها القمر... فيكشف له عن كل موضع خطوة يريد أن يخطوها، وخيمة عليّان لن تخفى عليه،

ففرسه البيضاء تُربط أمامه بلا ريب، وليس صعباً عليه التسلل إلى تلك الخيمة، وتمزيق جسد عليان بشبريته المسنونة، إنه لن يأخذ بندقيته، فلا يشفي غليله إلا تمزيق عليان إرباً إرباً.

لما هجم الليلُ على جبال الجنوب، كان أحمد قد وضع خطته وانتهى منها، إنه سيسير وحيداً هذه المرة، لن يكون بصحبته سوى القمر، وشبريته التي تلمع بين فينة وأخرى عاكسة ضوء ذلك القمر... كان سريع الخطى... يصل في بعض الأحيان إلى حدّ الهرولة... أنفاسه اللاهثة تحدث عقله بقرب الثأر، هو لن يأبه بما سيقع له بعد أن يقتل عليان، لا يهمه أعاش أم لم يعِش، فهدفه الأول والأخير قتل عليان.

ها هي خيام الشعايلة تتراءى له من بعيد، ضوء القمر الفضي يفضح أمكنتها كما لو أنها حصى سوداء صغيرة بين يديه... ثم توقف قبل أن يصل مضاربهم بقليل، إنه وقوف المتأمل المفكّر، وقوف أراد أن يستفيد منه لإسكات أنفاسه اللاهثة حتى لا يُسمَع لها صوت، كان هدفه الأول تحديد بيت عليّان تحديداً دقيقاً، وأن ينقضَّ عليه وينهي ثأره المرير.

وضع اللثام على وجهه، وأسكن أنفاسه، وتأمل مرابط الخيل من بعيد... تلك هي الفرس البيضاء التي لا يُخطئها الناظر، تلك هي فرس عليّان، ولا شك أن البيت الذي رُبِطت إلى جواره بيته، أخذت خطى أحمد تنقله باتجاه ذلك البيت، كانت خطى بطيئة، خطى صامتة لا تُدركها الآذان، إنه يقترب شيئاً فشيئاً من خيمة عليان، قبضته اليمنى

على شبريته، وعيناه تدوران في كل اتجاه، إنه لا يريد أن يغفل لحظة عن المحيط الذي هو فيه، ثم وصلت إلى أنفه رائحة بقايا الجمر المحترق داخل خيمة عليان، هي بضع خطوات ويصل، استحسن أن يدخل البيت من الخلف، حتى لا يتنبه عليان لقدومه من الأمام... ثم هو لا يخاف من وجود امرأة داخل تلك الخيمة، فعليان قد طلّق زوجته منذ مدة بعد أن فشلت في إنجاب الأولاد، ولم يزل يبحث عن زوجة جديدة... الثأر الذي اقتحم عليه حياته ألهاه عن متابعة البحث عن تلك الزوجة.

ثبّت أحمد قدميه جيداً على الأرض حينَ وقف عند الرواق الخلفي من خيمة عليان، ثم طأطأ رأسه وأمسك بكل هدوء بأسفل ذلك الرواق، وبخفة وهدوء أدخل رأسه داخل الخيمة من تحته، إنه يريد أن يستكشف المكان قبل الدخول... لا شيء يدعو للرِّيبة في جسد تلك الخيمة من الداخل، فراشٌ ساكنٌ في زاوية الخيمة، إنه بلا شك فراش عليان، ثم تسلل أحمد داخل الخيمة... استلّ شبريته بكل هدوء وخفة، ابتلع ريقه، إنه يسمع دقات قلبه كما سمعها من قبل... ثم أخذ يخطو باتجاه ذلك الفراش، وحينما تمكن من تحديد معالمه جيداً... أصابته الصدمة... عليّان ليس في فراشه ذاك، تساءل في نفسه هل أخطأ البيت؟ ثم عاد وأكّد لنفسه أنه البيت الصحيح، فهذه الفرس البيضاء، وهذه بندقية عليان التي رآها معه يوم الاقتتال قبل عام تقريباً، عرفها من نقش نحاسي على كعبها، كل ذلك أكد له أنه لم يخطئ المكان... ثم التفت نحو الفراش مرة أخرى، يتسلل ضوء القمر ليبدد ظلام الليل وظلام الخيمة، ثم لمع شيء ما خلف الوسادة،

اقترب أحمد منه، وحينما أمسكه إذا هو جعبة من الرصاص قد وضعها عليان عند رأسه، لم يكن عددها بالعدد القليل، ضمها أحمد إلى حزامه...

تراجع أحمد قليلاً، أخذ يفكّر بانتظار عليان حتى يرجع إلى خيمته، ولكن ماذا لو لم يرجع؟ ماذا لو كان نائماً في خيمة أخرى؟ كيف سيفعل لو أفاق بعض الشعايلة من حوله؟ وكيف سيغادر؟ إنه لا يخشى الموت، ولكن يخشى على الثأر أن يموت بموته، ثم قرر أخيراً أن يعود أدراجه، فقد عفا الموت مرة أخرى عن عليان في هذه الليلة... ثم رفع الرواق من حيث دخل، وبعد خطوة واحدة كان خارج الخيمة، أخذت خطواته البطيئة الحذرة تنقله بعيداً عنها، كان قلبه يذوي قهراً لأنه لم يتمكن هذه المرة كذلك من قتل عليان... لقد ابتسم القدر مرة أخرى لعليان، فخروجه من خيمته لقضاء بعض حاجته، وابتعاده عن خيام عشيرته حال دون موته في تلك الليلة، لمّا عاد إلى فراشه كان أحمد قد ابتعد كثيراً عن الخيمة، لم يستوقف عليان شيء غريب في خيمته، استلقى ونام.

اتّقدت الشمس في الأفق البعيد معلنة ولادة يوم جديد... أفاق عليان من نومه، ثم التفت باتجاه جعبة الرصاص، لم يجدها، هبّ من فراشه واستشاط غضباً، من الذي تجرأ وسرق جعبة الرصاص من خيمته؟ إن من فعل ذلك سيسومه عليان العذاب الأليم... ثم خرج من خيمته، ونادى ببعض الغلمان والشباب الذين كانوا يجوبون المساحات الفاصلة بين بيوت الشعر تلك:

ـ مين اللي سرق طلاق البارودة.

لم يقرّ أحد بذلك، فازداد غضب عليان، وأقسم بالله إنه حينما يكتشف الذي سرق الرصاصات سيربطه إلى عمود الخيمة، ويجلده بالعقال.

في الناحية الأخرى من جبال الجنوب تلك أمسك أحمد بجعبة الرصاص... تأملها جيداً، إنه حينما أخذها لم يقصد سرقتها، بل قصد من هذا الفعل أن يُثبت لعليان أنه كان على بعد خطوة واحدة منه، والدليل على ذلك هذه الرصاصات، ثم نادى شاباً من أهل صِنِفْحَة، وطلب منه أن يذهب إلى منازل الشعايلة، ويخبر عليان برسالته.

ركب ذلك الشاب دابته، وانطلق يشق الأفق باتجاه منازل الشعايلة التي وصفها أحمد له وصفاً دقيقاً، وما هي إلا مدة قصيرة حتى بدت له تلك المنازل... دخل بدابته بين بيوت الشعر والخيام، ثم نادى باحثاً عن عليان:

ـ وين عليّان.

كان نداؤه ذلك بقصد جمع ما أمكن من الناس حوله، ثم خرج عليان متجهماً من بين المتجمهرين:

ـ أنا عليان... وَشَدَّك مني.

عرّف الشاب بنفسه، وأنه من أهل صِنِفْحَة، ثم ألقى جعبة الرصاص على عليان، وقال:

ـ بقولك أحمد ابن مفلح هذي طلاقك ولا تتهم الشعايلة إنهم سرقوها.

لقد عرف أحمد بفطنته أن عليان سيتهم من حوله بالسرقة، فأراد لهذه الرسالة أن تدوّي في ذهنه... هنالك عرف عليّان أن الموت كان متربصاً في فراشه في الليلة الماضية، وأن يد القدر حمته منه مرة أخرى... راعتهُ تلك الرسالة التي وصلته من أحمد، وأحس أن العرارفة عموماً وأحمد تحديداً لن يهدأ بالهم حتى يقتلوه.

تأمّل أحمد ما كان في الليلة الماضية، أحس بالأسى على ضياع هذه الفرصة الثمينة، إن تكراراها لن يكون قريباً بلا شك، فمعرفة عليان بقدومه إلى خيمته في الليلة الماضية سيجعله أكثر حذراً، وربما تنكّر أو غاب عن المشهد كله... كلما تعمّق أحمد في هذا التفكير، أحسّ أن يداً خفية تغوص في جوفه، وتمسك قَلْبَهُ بقبضتها المتينة، ثم تعصره عصراً، حتى يوشك أن ينفطر أو يتمزّق.

أخذ عليان في تلك الأيام يتصفح كل الوجوه التي تحيط به... يخشى الموت من كل مكان، ويترقب الطلقة التي ستستقر في جسده أي جزء ستمزّق، كان يتوجس خيفة من كل شخص غريب عن المكان، راعياً كان أم فلّاحاً يبحث عن بقايا حصاد، أو بائعاً متجولاً، أو غيرهم... إنه يرى في كل امرئ منهم جاسوساً للعرارفة، ويحس أن نظراتهم إليه تُفشي سرّهم ذاك.

جلس في ليلة من الليالي أمام النار المُتَّقدة بباب خيمته بعد أن مضى الناس من حوله إلى خيامهم... أخذ يطيل النظر في تلك النار، ويحدث نفسه إلى متى سيبقى على هذا الحال؟ إلى متى وهو في خوف وتوجّس وارتباك؟ ماذا عليه أن يفعل؟ ثم

لاحت في ذهنه فكرة استحسنها، إنه سيبتعد عن المكان تماماً، وخير مكان يذهب إليه فلسطين، هناك لن يعرفه أحد، ولن يأتي ببال العرارفة أنه في فلسطين، وبالتالي يمنح وجهاء العشائر فرصة من الوقت لمحاولة الصلح والقبول بالدية... ثم عزم في نفسه على تنفيذ هذه الفكرة وإتمامها.

ولكن ما الذي يجعل عليان يخشى على نفسه الموت؟ لماذا هو خائف من أن يقضي أحد رجال العرارفة عليه؟ هو سبب كامن في نفسه، إنه لا يريد لنسله ونسل آبائه أن ينقطع... فهما أخوان فحسب، مات أحدهما، وها هو الآخر يصارع لأجل البقاء، ما لديه من مال وأملاك وسلطة في عشيرته قد لا يمنع عنه الموت، وقد لا يحول بينه وبين عشيرة العرارفة... ربما همّ في نفسه أن يقتل أحمد، ولكن أحمد وراءه رجال كثر لن يدعوا دمه يضيع هدراً... هو اليوم بأحمد، وغداً سيكبر جيل جديد عرف الثأر منذ أن كان يلعب في أفنية بيوت صِنِفْحَة الطينية... جيل سمع بعليّان... وكرهه... وملأ صدره بالحقد عليه ولكنه لم يرَه قطّ، فعيسى وعبد الرحمن طفلان صغيران ولكنهما غداً سيكبران على قصة الثأر لأخويهم...

تملأ الحيرة صدر عليان كما يملأ الحقد صدر أحمد... صدران مملوآن بشعور قاتم يعيق كل نبضة ينبض بها قلب هذا أو ذاك... وكل منهما يرى الحياة من زاوية مختلفة... كم لعن عليان في نفسه تلك اللحظة التي صاهر أخوه فيها عشيرة العرارفة...

لماذا لم تثمر تلك المصاهرة إلا عن زقوم مرّ يتجرّعه عليان... ويتجرعه عدد من أبناء عشيرة العرارفة كذلك.

تنبّه عليان بعد غفلة يسيرة إلى أن كل العيون التي حوله قد تشي بموضعه، وكل الأصوات التي تناديه تفضح مكانه، إن خروجه من عشيرته لا بد منه، ولكن يجب ألّا يعلم بالمكان الذي سيمضي إليه أحد، فكل من حوله يتناوشه مسّ من الغدر، هو لا يثق إلا بنفسه، وكفى بها حافظةً لسره.

ها هي الشمس تدع مكانها من كبد السماء وتصفرّ في عيون الناظرين... إنه اصفرار الموت الذي يقضي عليها كل يوم، ثم تولد من جديد... أشار عليان من بعيد لرجلين من عشيرته هما أكثر رجلين يثق بهما، أقبلا إليه وصُفرة الشمس تنعكس على وجهيهما وثيابهما، ثم إنه بادرهما التحية:

- اسمعوا تعالوا عُقب العِشا عندي بدي إياكم.

- ابشر... ابشر...

لمّا وثبَ الليل بكل سواده على ما تبقّى من ضوء الشفق المُدْبر في الأفق البعيد كان الرجلان ببيت عليان... وكان معهما رجل ثالث حضر كذلك بطلب منه...

- أنا رايح من هالبلاد...

كشفت وجوه الرجال الثلاثة عن قليل من الدهشة وكثير من الترقّب:

- وين أدك تروح؟

ـ أنا رايح في بلاد الله الواسعة.. وأنا جبتكم الليلة عشان أقسم حلالي وأرضي بينكم الثلاثة، أنا بتركها أمانة عندكم لما أرجع، وكل شيء بطلع من الأرض، أو من الحلال فهُوْ ليكم حلال زلال... وبس أرجع بوخذهن منكم... لكن لا تسولفوا لناس إني بدي أترك البلاد...

لم يعلق الرجال الثلاثة بكلمة على ما قاله عليان، هم يعرفون جيداً أنه ما أتى بهم إلا ليخبرهم بما قرر، ولن يثنيه عن قراره شيء...

لم يخامر عليان شك أن هذا الخبر الذي كتمه في نفسه بضعة أيام، ثم ها هو يبوح به للرجال الثلاثة لن يطول كتمانه أبعد من طلوع الفجر الآتي؛ لذا ما إنْ غطّت الخيام في نومها، وشهقت النيران التي بأفنيتها آخر شهقاتها، حتى صبّ ما معه من المال في جيوب معطفه، وامتشق بندقيته، وامتطى فرسه البيضاء، ثم وكزها برِقّة لا تخفى عليها... ثم أخذت تجِس الأرض بقوائمها كأنها سارقٌ يدبُّ على أطراف أصابعه خوفاً من أن يسمعه أحد... لمّا اختفت خيام الشعايلة وراء ذيل تلك الفرس لم يلتفت عليّان نحوها، ولم يخفق قلبه مودعاً إياها... إنه في ظنه الآن هارب من الموت إلى الحياة.

أفاق الفجر من رقدته، والتهم ضوؤه الأبيض سواد الليل... وتنفَّست صدور الناس رائحة اليوم الجديد، يوم استيقظ فيه الجميع من عشيرة الشعايلة على مغادرة عليّان المكان... لقد صدقت نبوءته هذه المرة أيضاً... ولكن الضوء الذي كشف للشعايلة هذه

الحقيقة هو نفسه الذي منح عليّان الإحساس بشيء من الأمان، فهو الآن يعدو على فرسه متاخماً غور الأردن من الناحية الغربية، ومقبلاً على أرض فلسطين لا يفصلها عنه سوى بعض الأودية والشعاب... نعم لقد أدار عليّان ظهره للأرض التي أحبها وأحبتْه... ربما يطول الفراق بينه وبينها.

في الجهة الأخرى لم يكن أحمد ومن معه من عشيرة العرارفة ليعلموا بخروج عليّان من عشيرته، كانوا يترصدون الأخبار التي يأتي بها المتنقلون بين قرى الجنوب المختلفة... وكانوا يبحثون في صفحات تلك الجبال ووجوه الأودية عن أثر يدلهم على عليّان... إنه اختفى دفعة واحدة، لم يعد له أثر في هذا الوجود... بالنسبة لأحمد فإنه لن يتوانى لحظة عن البحث عن عليان، إنه سيصل إليه حتى لو كان في آخر مكان في الدنيا... هو مستعد لأنْ يجوب الدنيا كلها في سبيل الوصول إليه... ثم وصلهم خبر ارتحال عليان عن عشيرته، ولكنْ إلى أين لا أحد يعلم، فحتى عشيرة عليان أنفسهم لا يعلمون بمكان هروبه ذاك.

بغياب عليّان وابتعاده عن المشهد اشتدّت الضغوطات على عشيرة العرارفة من وجهاء العشائر السائرين في طريق الصلح، فعليان المطلوب للثأر غير موجود، ولا أحد يعلم مكانه، وهو متأرجح بين أن يعود أو لا يعود... ثم أخذت تحاصر أحمد ومن حوله عبارات الصلح، وربما قيل لهم أن يأخذوا الدية خيراً لهم من مطاردة ثأر ربما لن يصلوا إليه أبداً... فخير لهم القبول بالدية، وترك فكرة الثأر عنهم، هكذا كانت الأفكار

تلطم أحمد يمنة ويسرة... ربما أحسّ وجهاء العشائر في لحظة ما أنهم قد قدروا على أحمد، ولكن الحقيقة تقول غير ذلك، فأحمد لن يلين له جانب، ولن يهدأ له بال حتى يأخذ بثأر أبيه وأخيه وأبناء عمومته، وما هذه المحاولات للصلح إلا محض إضاعة للوقت بالنسبة له، فالأمر محسوم ولا رجعة عنه.

لقد كان موقف أحمد من الصلح بمثابة الصخرة التي تتكسّر عليها فؤوس من يوَدُّ تحطيمها... فكلما ألانت مساعي الصلح جانبه في لحظة ما... تزاحمت في ذاكرته تلك المشاهد الأليمة وقد افترس الموت أهله... كان يخيَّل إليه أن تلك المشاهد وحوش كاسرة تتربص به من كل جانب، تحاول الوصول إلى فؤاده فَتَفْتَرِسه... ثم لا يلبث أن يطردها بصرامته تلك، وإصراره على الأخذ بالثأر.

-(5)

ها هي السنوات يطرد بعضها بعضاً... والثأر لم يبرح مكانه في صدر أحمد وعلي، وثمة وجوه جديدة في هذا الثأر، إنهما عيسى وعبد الرحمن... ها هما الآن بعمر ستّة عشر عاماً.. لقد تركا أيام الطفولة واللعب وراءهما منذ زمن، وأصبح لا يستهويهم إلا مجالسة الكبار والحديث عن الثأر... لطالما طلبا من ابن عمهما الأكبر – أحمد – أن يصف لهما شكل عليان بدقة، فربما لقيه أحدهم صدفة فقتله، هكذا كانت أفكارهم البسيطة تصل إلى هذه الحدود...

طاف العرارفة جنوب الأردن جبلاً جبلاً، وواديا وادياً يبحثون عن عليان... فلم يجدوا له أثراً... لقد ذاب تماماً في هذه الدنيا، صار كسراب ينظر إليه السائر في الصحراء على أنه بقعة من الماء، ثم لا يلبث أن لا يجده شيئاً... واستوثقت الحيرة من قلب أحمد، تساءل كثيراً عن مكان عليّان، وحدّثها كثيراً عن الفرصة التي لا بد أن تأتي يوماً ما... في تلك السنوات لم يعرف السرور والفرح طريقهما لقلب أحمد، فالعروس التي زُفَّت له يوماً ما لم تنسِه مرارة الثأر... والمولود الذي أتاه بعد مدة لم يبتسم له وجهه إلا بعد أن عرف أنه ذكر، وأنه سيحمل على عاتقه الثأر إنْ هو مات... سماه مفلح، وصار الناس ينادونه أبا مفلح.

لاح ببال أحمد فكرة استحسنها، لا بد أن عليان يترصّد أخبار الناس في جنوب الأردن، لا بد أنه يتوق للعودة لأهله وأرضه وسلطته التي ضحّى بها في سبيل النجاة من الموت، لا بد أن كل ذلك يحصل، ولكنه تساءل: كيف أُجبره على العودة؟ ثم اقتدحت فكرة هائلة في ذهنه، إنه سيسايس وجهاء العشائر، وسيُبدي لهم إمكانية القبول بالدية، حتى إذا تسرب خبر مثل هذا إلى عليّان ربما دفعه إلى الظهور، ومن ثم تكتمل الخطة بقتله.

هذا ما كان فعلاً... ففي محاولات الصلح التي تبوء بالفشل دوماً ظهرت بعض مساحات المراوغة، وأحسّ وجهاء العشائر أن العرارفة قد يقبلون بالدية، ويَدَعون عنهم فكرة الثأر والقتل، وكي يزداد إحساس الوجهاء بإمكانية الصلح قال لهم أحمد ذات زيارة:

ـ الديّة اللي بتسولفو عنها لازم تكون ديتين لكل زلمة... لأن عليّان هوْ اللي بدا الذبح.

هذه العبارات وأمثالها كانت بمثابة الماء البارد الذي صُب على قلوب وجهاء العشائر الذين يسعون للصلح، ثم تناقلت الألسن هذه الأخبار، وذاع في القرى الجنوبية خبر إمكانية قبول العرارفة بالدية، وانتشرت الأخبار في كل مكان... ولكن أنّى لأحد أن يصل لعليان الذي لا يعرف مكانه أحد، ولا يعلم موضعه بشر، هذا الحاجز المنيع، والجدار الصُّلب هو الذي أَطالَ أمد الانتظار عند أحمد... فصحيح أنها خطة جيدة، إلا أن زمنها ليس طويلاً، فإذا طال الزمن أكثر من اللازم صار مطالباً بإنجاز وعوده،

أخذ يماطل الوجهاء في كل مرة، الوحيد الذي يفهم خطته هذه عليّ ابن عمه... أما عيسى وعبد الرحمن فطالما هبّا في وجهه مستنكرين هذا الأمر منه، غير أنه كان ينتَهرُهم، وكانا يحترمانه فلا يجرؤان على عصيان أمره، فهو كبيرهم الآن، وهو أقرب إلى الثأر منهم...

في تلك السنوات المنصرمة لم يكن عليّان مغيَّباً تماماً عما يجري في أروقة عشيرته وعشيرة العرارفة، بل كان يترصد الأخبار، ويتلقّف الأنباء من أفواه الشباب القادمين من قرى جنوب الأردن، دون أن يكشف عن شخصيته، أولئك الشباب الصغار كانوا يقطعون الأودية الوعرة وغور الأردن إلى فلسطين بحثاً عن العمل، فقد كانت فلسطين في تلك السنوات تعجّ بالحياة، وتزدحم بمظاهر الحضارة والتقدم، تصادف عليّان مرة مع أحد أولئك الشباب... وسايره الحديث، ثم قال له:

ـ وِش صار مع العرارفة والشعايلة يا خوي... بعد تارهم ما خلص؟

ـ والله ما صار شي، عليّان مختفي وما ناس داري وين هوْ... وشِكل العرارفة بدهم يِصْلِحوا ويقبلوا بالدية.

استقرّت هذه العبارة في فؤاد عليان، ودبّ الفرح في صدره، إنه يتذكر الآن كل البقاع الجميلة التي يعرفها في دياره وبلده، إنه يشتم رائحة العودة، فإذا تمّ الصلح بين العرارفة والشعايلة فلن يمكث في فلسطين ساعة واحدة، فالعهود والمواثيق التي سيأخذها العرارفة على أنفسهم أمام وجهاء العشائر ستمنعهم من مطاردته، وقبولهم بالدية يعني

نسيانهم لفكرة الثأر... يا لهذا الخبر كم هو ثمين على قلب عليان، فالسنوات التي مرت به لا تعد من أيام عمره، ثم أخذ يسأل كل من يصادفه من أبناء القرى الجنوبية عن هذا الخبر، ويقول لهم:

ـ سَمعت إن العرارفة والشعايلة بِدهم يِصلحوا...

وكان أولئك الشباب يُعقِّبون بالإيجاب... وبعد أشهر تقابل مع أحدهم من قرية عِيمة، وسأله السؤال ذاته، فكان الجواب هذه المرة مختلفاً:

ـ سمعت إنهم تصالحوا... والعرارفة أخذوا الدية.

كاد عليان يطير فرحاً، فهذا هو الخبر الذي ينتظره منذ زمن، وفي الواقع لم يكن العرارفة قد تصالحوا، وإنما أخطأ ذلك الشاب التقدير، فالأخبار التي كانت تقول بأنهم قد يتصالحون أشكلت عليه، فظنّ أنهم قد تصالحوا، ولم يعلم أن الذي أمامه هو الرأس المطلوب في هذا الثأر.

لم يتأكد عليان من صحة الخبر، وإنما أخذه على محمل الجِدّ، ثم قرر أن يعود إلى أرضه، فالثأر قد انتهى، ورأسه لم يعد مطلوباً... أيام قليلة وأدار ظهره لأرض فلسطين، واستقبل المشرق حيث دياره وعشيرته وأهله.

ذات مساء فوجئ أهل عشيرة الشعايلة بدخول عليان عليهم، هبّ الرجال في استقباله والترحيب به، وسُرّت أختُهُ بقدومه، ذاك السرور دفعها لتُطلق زغرودة في فضاء القرية كادت أن تصل إلى صِنِفْحَة، ثم فاحت رائحة القهوة العربية في المكان، وأخذ الجميع

يرددون عبارات الترحيب، منهم من كان صادقاً بها، ومنهم من كان كاذباً، فعودته تلك ستمنع عن بعضهم مشيخة كان آملاً بها، وعليان ذو مشيخة قديمة في العشيرة، وهو أحق بها، كما أنه يملك من الأرض والمال والحلال ما يجعله مهوى أفئدة الكثيرين من عشيرته، فتتم له سلطته، هي أفكار كتمها عدد من الرجال المهنِّئين بهذا القدوم، وبعد أن رُفِع العَشاء تنطّع أحد الحاضرين الفضوليين بسؤال عليان:

ـ وين كنت يا أبو حسين في هالسنوات اللي فاتت.

بابتسامة لطيفة أظهرت بعض أسنانه أجاب:

ـ كنت في فلسطين.

ثم أردف آخر بالسؤال:

ـ طيِّب وِش اللي خلاك ترجع.

ـ الصلح اللي صار.

وقعت أحناك الرجال الحاضرين حتى انكشفت حلوقهم لما سمعوه، بل إن بعضهم قد شهق شهقة عظيمة، ذلك المنظر دبّ الذعر في قلب عليّان:

ـ علامكو يا زلام وِش صار؟

ـ الصلح بعدُهْ ما صار...

ـ وشّو... بعدُهْ ما صار؟!

ـ لا والله بعدُهْ...

تَقَهْقَر الفرح والسرور عن قلب عليان، وابتعدت البشاشة عن وجهه... أمضى ليلته تلك متعجباً مما جرى، لام نفسه للحظة، ولكنه عاد واستتر خلف عنفوانه ورجولته، وتساءل في نفسه لائماً إياها:

ـ شو ممكن يصير... ما في داعي للخوف... ويا ذابح يا مذبوح.

لم يمكث خبر عودة عليان من فلسطين طويلاً حتى استقرّ في آذان العرارفة، وها هو أحمد يبتسم ابتسامة الانتصار، لقد نجحت خطته، وأجبر عليان على العودة، والآن لا حجة لوجهاء العشائر لإتمام الصلح، فالشخص المطلوب حاضر الآن، وهو لن يعود لفلسطين بعد أن كشف عن مخبئه ذاك الذي ستره سنوات ليست بالقليلة.

عاد الترصّد والتربّص من جديد لعشيرة العرارفة... كما عاد التخفي والحذر لعليان بعد أن هدآ لسنوات مضت، لا مجال الآن أمام عشيرة العرارفة للتفريط بهذا التغير الجديد الذي طرأ على مسيرة الثأر، لا بد من تحقيق هذا الهدف، صحيح أن الأخبار التي كانت تصلهم عن عليان ومكانه لم تكن كافية لوضع خطة واضحة ومؤكدة للقضاء عليه، ولكن ستأتي الفرصة يوماً ما، والجِدّ في الطلب سيوصلهم لمبتغاهم.

المتطوِّعون الذين يجلبون الأخبار لأحمد بن مفلح كُثر... منهم من يسعى للخلاص من عليان وسلطته، ومنهم من يسعى لمكافأة جزيلة قد يمنحه إياها أحمد لقاء ما يُفشي به عن مكان عليّان.

وجهٌ غريب في قرية صِنِفْحَة يبحث عن أحمد... يرتدي زيّاً بدوياً، ظنّ بعض أهالي القرية أنه آتٍ لشراء متاع من أحمد، أو بيع متاع، ولمّا دُلّ على مكانه واختلى به:

ـ أنا من الشعايلة... جاي أقول لك عن مكان عليان.

لمعت عينا أحمد سرورا وترقباً:

ـ وِش اللي يخلّيك تخبِّر عن مكان قرابتك... عشان يِنذبح.

ـ قصة طويلة ما في داعي أسولفها الحين... أنا كاره عليّان أكثر منك... المهم إنتَ بدك راس عليان والّا بدك تحقق معاي؟

ـ لا أنا بدي راس عليان.

ـ طيب اسمع مني... عليان أدّو يروح على عمّان بعد ثَلَثْ تيَّام... هوْ وخَمِسطعش زلمة من الشعايلة وعشاير ثانية.. رايحين جماعة كل واحد عندو شغل في عمان، وعليان أدُه واحد من الدولة عشان يِحطُّهْ شيخ على الشعايلة..... أنا بعد ما يروحوا بجيك هانا وبعلمّك عن طريقهم وبوصِّف لك عليان عشان تعرفوه، وما عليكم إلا إنكو تقعدوا لي في الطريق وتذبحوه.

لم ينطق أحمد بكلمة، فالرجل الذي يتحدث أمامه لا يريد منه سوى أن يتخلص له من عليان، فثمة حقد دفين بينهما، وهو لن يخسر شيئاً ما دام الرجل يتكفل بإيصال الوصف الدقيق لأحمد، فإذا أدرك ثأره كان خيراً، وإذا كان الرجل كاذباً فليس هناك ما يخسره.

مرّت الأيام الثلاثة ثقيلة على نفس أحمد... حدّثَ خلالها عليّاً بما جاء به الرجل من قبل، وافق علي ابن عمه أحمد فيما يراه، واتفقا على أن يذهبا معاً للوصول إلى مبتغاهم... وفي صبيحة اليوم الثالث أقبل الرجل نفسه إلى صِنِفْحَة، وقصد بيت أحمد، ثم أخبره أن الركب قد انطلق منذ قليل، وهم الآن لم يسيروا كثيراً، فهم ينتظرون رجلين من القادسية حتى يسيروا معاً، وعليهم الآن أن يسبقوا الركب وينتظروا عليان في مكان ما في الطريق، ثم أردف الرجل:

ـ عليان راكب بغلة حمرة، وعليه شماغ أحمر وعقال، ثوبُه سكني... وعليه جُبة كحلية.

كان هذا الوصف دقيقاً بما يكفي لمعرفة شخصية عليان من بين الجماعة الراكبين معه، وصفٌ يمنح أحمد وعلي القدرة على معرفته من بعيد، وإردائه قتيلاً ببضع رصاصات.

قضت الخطة التي وضعها أحمد أن يركب هو وعلي فرسيهما ويسبقا الركب المتجّه إلى عمان، ثم يخبئان الفرسين في أحد الأودية، ويختبئا في الطريق أسفل منحدر وادي الشيح، وحينما يُطلّ عليان من أعلى ذلك المنحدر يقتنصانه بالرصاص من الأسفل... كانت هذه الخطة متراصة الجوانب لا يشكّ أحمد في نجاحها.

أخذ الركب يشق طريقه باتجاه الشمال، متابعاً وجهته إلى عمان... عليّان حريص كل الحرص، وهو يعلم أن بعض الأخبار قد تصل إلى العرارفة؛ لذا من الواجب عليه أن يضع جميع الاحتمالات في حسبانه، وحينما أقبل الركب على وادي الشيح انقبض

قلب عليان، وأحسّ أن خطباً ما قد يحصل... المنحدر الذي يفيض منه الركب باتجاه الوادي يبدأ بدرب ضيق لا يسمح إلا بمرور دابة واحدة، والراكب حينما يعبره يُطلّ بكل كيانه على الوادي، فإذا كمن له أحد أسفل هذا المنحدر اقتنصه لا محالة... هي خبرة لخَّصتها سنوات الحذر الطويلة التي عرفها عليّان... ولما أفزع ثغرُ المنحدر فؤاد عليّان أخذ يدقق النظر في كل ما حوله، ويستفيد من كل لحظة... أحسّ أن وجه الأرض يفضح أثر أقدام رجلين اثنين... حينها استوقف الركب، ونزل عن دابته الحمراء، ثم تظاهر أنه يريد قضاء بعض حاجته... دقق النظر في الأثر فكان محقّا في ما رأى، ابتعد قليلاً عن الركب، واختفى وراء هضبة صغيرة، هناك خلع شماغه الأحمر وعقاله وثوبه وجُبته، وارتدى ثياباً أخرى مختلفة، ثم أقبل على الركب، عرف بعضهم مقصده من هذا التغيير وغاب عن بعضهم الخبر، ثم عمد إلى صخرة على جانب ذلك الدرب، ووضع عليها ثيابه، ثم أسبل شماغه فوقها، وأتم ذلك بالعقال، بدا ذلك الشكل على هيئة رجل جالس يستدبر المنحدر، ثم تقدّم إلى أول الركب ومضى.

أحمد وعلي ينتظران الركب بفارغ الصبر، هما كامنان في بطن جرف من الوادي خطّه السيل عقب مطر غزير، البندقيتان تنظران للمكان الذي سيفيض منه الرجال الراكبون، كان رأس عليان أول الرؤوس التي أطلّت، لكن أحداً منهما لم يعرفه، فالمسافة الفاصلة لا تمنحهما القدرة على التمييز الدقيق، والسنوات الطويلة التي مرّت فعلتْ فعلتها بتقاسيم وجه عليان، فصورته قبل بضع عشرة سنة لا تشبه صورته الآن.

ثم توالت الرؤوس، وانتهى الركب، عليّان في هذه اللحظة في بطن الوادي، يوشك أن يهمّ بارتقاء الجانب الآخر منه... في لحظة ما أحس كأنه رأى طيفاً أسفل المنحدر، لكنه اشاح النظر وتجاهل الطيف حتى لا يفضح نفسه.

لم يزل أحمد وعلي ينتظران، ثم تساءلا متعجبين:

ـ ما ظل ناس؟!

في تلك اللحظة سيطر عليهم إحساس بأن ذلك الرجل الواشي قد خدعهما، وربما صرف نظريهما عن فرصة كادت أن تُقبل إليهم... الآن صار الركب بعيداً بما يكفي، ثم خرجا من مكمنهما، وتسلقا المنحدر، هما في حالة من السكون المُحبِط.. لمّا بلغا أعلى المنحدر، وتَلَوَّى الدرب أمام عينيهما كأفعى نحيلة بدا شيء مثل رجل جالس يستدبر المنحدر، ماذا يفعل عليّان هنا؟ هذا السؤال الذي باحت به نفسهما دون أن ينطق به لساناهما... ثم تكلَّمَ الرصاص مخاطباً ذلك الرجل الجالس، لم يكن رجلاً، بل كان خدعة خدعهما بها عليّان، صوت دَويّ الرصاص الذي وصل أذني عليان تأكيد له بأن شكّه في محله، وأن خطته قد نجحت.. كم هو داهية، وكم حالفه الحظّ مرة أخرى.

الآن لا سبيل أمام أحمد وعلي سوى العودة مشياً لفرسيهما، ولا يمكن اللحاق بالركب، فأي الرجال الذين مرّوا عليان؟ هما لن يستطيعا تمييزه من بعيد، وربما وقع قتيل لا ذنب له ولا جريرة... هي عودة مُرَّة لصِنِفْحَة، لقد فرّ منهما عليان كما يفرّ

الماء من بين الأصابع، الثأر الذي كاد أن ينتهي ها هو يولد مرة أخرى في قلب أحمد، واللحظة التي مرّ فيها عليان من أمامهما أنكرها الموت وجفاها الزمن.

عيسى وعبد الرحمن يستشيطان غضباً، تئن الأرض تحت ضربات أقدامهما الغاضبة، يفوران في وجهي أحمد وعلي، ويتساءلان عن السبب الذي منع أحمد من أن يأخذهما معه للقضاء على عليان، هما ليسا ولدين الآن، والثأر الذي يُخبّئأنه في طيات صدورهما يفور كما يفور في طيات صدر أحمد، الحُمرة التي غطّت وجهيهما كانت في لحظة ما تميل إلى الزرقة لشدة ما وقع في نفسيهما من الغضب، ذلك المشهد لم يكن ليُغضب أحمد، بل أسعده... فالذين يطلبون عليان أكثر من واحد، ولو مات أحدهم سيتكفل الآخرون بالقضاء عليه.

لم تكن الفرص التي تُتاح للعرارفة كثيرة كي يُجهزوا على عليان، فربما أنفق طالبُ الثأرِ عمره بأكمله للوصول لفرصة واحدة، وها هم العرارفة كلما أقبلت إليهم الفرصة أدبرت نهايتها السعيدة، وكأن هذا الثأر ضيف ثقيل الظل يأبى الابتعاد والذهاب عنهم.

يستغلّ أحمد ليالي الشتاء الطويلة لإعمال النظر والتفكير في وسيلة ناجعة للقضاء على عليّان، طالما فقدته أم مفلح قُبيل الفجر، فإذا أطلّت في فناء الدار وجدته شارد الذهن، متأملاً في الأفق البعيد، ناظراً إلى جيش الظلام من حوله، إن هذا الثأر يقض مضجعه، ويؤلم نفسه... كثيراً ما تسلل إلى أذنيه همهمات أمه – أم أحمد – التي يلهج بها لسانها قبل أن تتوضأ لصلاة الفجر... ظن في أكثر الأحيان أن همهماتها تلك

دعاء على عليان بالموت والثبور، وطالما أقبلت عليه متسائلة إنْ كان قد نام أم لا... كان يكتم الجواب في نفسه، فليس من فائدة تُرجى، ولا من خسارة تقع.. ذات فجر جلست أمه بالقرب منه، تأمل أحمد الحزن الذي لم يبرح مكانه عن صفحة وجهها منذ سنوات طويلة، هي الآن عجوز مرّ عليها من الألم ما يكفي للقضاء على كل شعرة سوداء في رأسها:

ـ بتعرفي يا حجة... زمان ما شفتك بتضحكي.

ـ على ويش أضحك...

كان كلام أحمد هذا بقصد سبر أغوار نفس أمه، والوصول إلى قناعاتها، أهي ما زالت راغبة في قتل عليان أم تخشى عليه هو من عليان؟

ـ خفتنكي يا حجة خايفة عليّ من عليان؟

ـ اللي ما بخاف ما بسلم.

ثم أحسّ أحمد أن نفسه تتوق لمزيد من التشجيع والتحفيز، فأردف قائلاً:

ـ وش رايك يا حجة إنا نوخذ هالدية وندشّر عنا التار؟

هو يعلم أنها غير موافقة، وهي تعلم أنه غير صادق، ولكن أحمد أراد أن يسمع عبارة طموحة تدوّي في أذنيه... فحينما سمعت أمه هذا الكلام منه، انعقدت خيوط غاضبة على جبهتها، وتقافزت العفاريت أمام عينيها، وأحست بقوة هائلة كانت مكبوتة

في جوفها تحررت واندفعت في عضلاتها، ودبت بين أعضاء جسمها، ثم قالت بشدة وغضب:

ـ اسمع يا أحمد عليان ما لازم يموت موتِتْ ربه، عليان لازم ينذبح يعني لازم ينذبح.

مرت سنتان والعرارفة يتصيّدون الفرص، ويبحثون في كل مكان عن عليان، لاحت لهم بعض الفرص، منها ما كان بسبب وشاية وصلتهم، ومنها ما أهداها لهم البحث المتواصل، غير أن واحدة من هذه الفرص لم يُكتب لها النجاح... ذاك الفشل الذي طوّق كل فرصة لم يوصل العرارفة لليأس من تحقيق ثأرهم، ولم يُخمد نار حقدهم، بل زادهم إصراراً، ومنحهم عزيمة.

صوتٌ مدوٍ يقتحم قرية صِنِفْحَة حينما اقتربت الشمس من أفق المغيب:

ـ يا أبو مفلح... أبو مفلح...

تعتري ذلك الصوت ارتجافة ناشئة من شدة عدْوِ الفرس التي يركبها ذلك المنادي... فزعت بعض قلوب القرية، وتطاولت الرؤوس لترى ما الخبر، ثم أقبل أحمد – أبو مفلح – من أحد دروب القرية:

ـ اِكفي شرّك يا رجل، علامك.

كان المنادي أحد رجال قرية صِنِفْحَة، وكان آتياً من عند ماء السراب، ثم التقط أنفاسه، وأوقف فرسه:

ـ عبد الرحمن ذبح واحد من الشعايلة.

ـ وِش قلت.

ـ هذا اللي صار، عبد الرحمن ذبح واحد من الشعايلة.

لقد وصل الخبر إلى أحمد بسرعة البرق حتى قبل أن يصله عبد الرحمن نفسه... ثم مالت الأرض تحت قدمي أحمد، ما هذا القتل الجديد، أيكون هذا القتل سبيلاً لفرار عليان من الطلب؟ أيساوم الشعايلة عشيرة العرارفة بالعفو عن عبد الرحمن مقابل العفو عن عليان؟ يا لها من مصيبة.

الرجال الحائرون يحيطون بأحمد من كل جانب، لا يقوى أي منهم على الكلام، لقد أكلت الحيرة وجوههم، وأعمت عيونهم عما أمامها... لا يدري أحد عن تلك اللحظات أطالت أم قصرت؟ فالزمن لم يكن في الحسبان، ثم غلّف المغيب وجه القرية، ودخل أحمد تسوقه الحيرة والغضب إلى داره، ثم لم يلبث أن سمع:

ـ يا عمو... يا عمو.

عرف صوته قبل أن يدخل عليه الدار، إنه عبد الرحمن، فهب أحمد واقفاً... أطلّ عبد الرحمن من البيت، ثم قال مُبتهِجاً:

ـ ذبحت عليان...

ثم ارتسمت خطوط حمراء خمس على شق وجهه الأيسر، كانت تلك الخطوط نتيجة للصفعة التي أرسلها أحمد إلى وجه عبد الرحمن دون أن ينطق بكلمة:

ـ ليش يا عمي...

ـ اللي ذبحته مو عليان.

ـ مو عليان؟!

حينما كان عبد الرحمن بصحبة عدد من الرجال على ماء السراب يسقون أغنامهم، وكان عبد الرحمن قد أتى على فرسه يريد أن يشرب ويسقي دابته، إذ بدا له طيف رجل من بين الحاضرين، خُيّل له أنه عليان، فالوصف الذي كان أحمد وغيره قد وصفه له شبيه بهذا الرجل، فعبد الرحمن لم يسبق له أن رأى عليان من قبل، بقي في حيرة هل هذا الذي أمامه عليان أم لا؟ ولكنه ما إنْ سمع أحد الرجال يناديه بأبي حسين، ترجّح لديه أنه عليان... أشهرَ بندقيته دون تأنٍّ وأطلق الرصاص عليه فقتله... في حقيقة الأمر أن الرجل يشبه عليان نعم، ولكنه ليس هو، واختلطت الأمور عند عبد الرحمن فوقع في هذا الخطأ الجسيم نتيجة اندفاع الشباب لتحقيق الثأر وقتل عليان.

إن أكثر ما يخيف أحمد الآن أن يتساوى رأس عليان برأس هذا القتيل، وأن يفاوضهم وجهاء العشائر بالعفو عن عبد الرحمن مقابل العفو عن عليان... يا للحيرة، ثم انتبه كأنه أفاق من سكرة:

ـ مين داري إنو عبد الرحمن ذبح الزلمة على أساس إنُهْ عليان؟ ما ناس داري.

ثم التفت لعبد الرحمن وكان لا يزال مصدوماً من ردة فعل ابن عمه أحمد:

ـ اللي ذبحته مو عليان، زلمة ثانيي بشبهه، لكن دير بالك تقول لناس إنك كنت بتفكره عليان، سمعت.

ـ سمعت... سمعت.

هذه العبارات التي تدحرجت في الحجرة دحرجها الغضب الذي تطاير من عيني أحمد تملكتها الشدة وغلفتها الصرامة، لم يفهم عبد الرحمن ما الذي يدور في خلد ابن عمه، ولكن عليه أن يفعل ما يُطلب منه الآن للخروج من هذه المشكلة التي قد تُضيّعِ عليهم ثأرهم.

لم يدع أحمد الليلة تمضي، بل ركب فرسه وانطلق يشق جيوب الليل حتى وصل إلى أحد وجهاء العشائر الأردنية بالقرب من الحِسا، ثم قصّ عليه الخبر، وبيّن له أن ابن عمه – عبد الرحمن – قتل الرجل خطأً، وأنه لم يكن ينوي به شراً، ولكنه أخطأ فأصابه في مقتل، وحينما رأى الرجل قد مات هرب من المكان... إنه دهاء وحيلة استلهمها أحمد في هذا الموقف، وهو يطمح بنجاح حيلته.

في اليوم التالي ذهب وجهاء العشائر لعشيرةِ الشعايلة كان القتيل بعيد القرابة من عليان، كما أن الفطنة جفت عليان هذه المرة، فلم يخطر بباله أن يساوم العرارفة على الثأر القديم، ثم ترسخ في أذهان الشعايلة أن القتل كان خطأً، وأن عبد الرحمن لا يقصد قتل الرجل، فأخذت كفة الميزان تميل لمصلحة أحمد، وها هي معطيات الأمور تسير نحو الصلح ودفع الدية.

أنفق العرارفة سنة ونصف من الوقت حتى انتهوا من المصالحة مع ذوي القتيل، هي سنة ونصف شغلتهم عن طلب عليان، وأبعدت خطواتهم باتجاه تحقيق ثأرهم، ولكن جذوة الثأر ما زالت متّقدة، ونار الانتقام تهيج في شرايين أحمد وأبناء عمومته.

ذات صباح نظر أحمد لوجهه في المرآة، فرأى الشيب قد التهم جانبي رأسه، راعه ذلك المنظر، إنه يخشى من الشيب أن يحول بينه وبين الثأر، ثم ابتهل لربه داعياً وراجياً أن يمكّنه من قتل عليان، ثم قال:

ـ يا رب إذا بذبح عليان لا تخليني بعده شهر واحد.

يا لهذه الدعوة ما أعظمها، لقد لخّص أحمد حياته كلها في قتل عليان، إنه لا يرغب في الحياة بعد تحقيق هذا الهدف، فالمهم ألا يموت قبل أن يقتله، وهو لا يرجو من الله شيئاً في هذه الدنيا إلا إطفاء نار الثأر بجذوتها المتوحشة ولهيبها العظيم من نفسه.

(6)

دخل عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف، الدولة تبسط سلطتها وهيمنتها... حياة الأردنيين في طور التغيّر الهائل، سنوات قليلة تفصلهم عن الاستقلال، ولا بد قبل الاستقلال من تكوين هذه السلطة المتينة للدولة... إن إحكام قبضة السلطة على زمام الأمور قد يضني المتعطشين للثأر، كما سيُنهي بعض جيوب التمرد الاجتماعي التي ظهرت إثر ضياع السلطة الحاكمة من قبل.

يُطلّ على القرى الجنوبية فُرْسان الدولة بين مدة وأخرى، كانوا يسمونهم الخيّالة؛ لأنهم كانوا يأتون على ظهور الخيل، فالطرق والشوارع لمّا تُشقّ بعد، ناهيك عن السيارات النادرة في ذلك الحين، ولما كان عليان بمثابة أحد وجهاء الشعايلة، كانت رحال الخيّالة تحطّ عنده، فكان يُكرم نزولهم، ويحسن وِفادتهم، فهو يطمح أن يكون ذا شأن في جسم الدولة التي ستولد في شرق الأردن، مما جعل الخيّالة يجدّون في طلبه كلما ألقت بهم المسافات قريباً منه، وكلما قصدوا جنوب الأردن بقراه وجباله العالية.

خيول جنود الدولة تثير بقوائمها الأرض، يُسمع صوتها من بعيد وهي تستقبل قرية صِنِفْحَة، وما هي إلا بضع لحظات حتى توقفت أفراس ثلاث عليها فرسان مدججون ببنادقهم، لباسهم العسكري المنتظم استمال عيون الأطفال وقلوبهم... تطلّعت النساء من كوات الضوء في جدران البيوت الطينية، واندفع بضع رجال يقصدون هؤلاء الخيالة،

من بينهم أحمد وعلي وعيسى وحامد وغيرهم... لم يزل صوت لهيث الخيل يمنع الهدوء من فرض نفسه على المكان، وذيولها تروح يمنة ويسرة كأنها راية، تكلم أحمد:

ـ الله يحييكم تفضلوا يا رجال.

ـ مين زلام العرارفة هانا؟

ـ تفضل أنا أبو مفلح... خير إن شا الله.

ـ اسمع يا أبو مفلح الدولة بدها شتيوان.

ـ والله يا سيدي أنا ما بعرف وين شتيوان.

ـ أنا قلت كلام واضح... لازم تسلمونا إياه.

الفارسان الآخران لم ينطقا بكلمة، ثم أدار الجندي فرسه، ووكزها فانطلقت، كان وهو على ظهرها ينظر لمن حوله بخيلاء وكبر، أليس هو ممثل الدولة؟ ثم أردف بعد أن سارت فرسه بضع خطوات:

ـ أنا قلت اللي عندي، لازم تسلمونا شتيوان.

انطلق فانطلق وراءه الفارسان الآخران اللذان لم ينطق أي منهما بكلمة... لم تدُم حيرة العرارفة ومن حولهم من أهالي صِنِفْحَة أبعد من اختفاء أولئك الفرسان عن أنظارهم، ثم عادت الحياة لما كانت عليه، هذا التهاون آتٍ من قلة الإحساس بسلطة الدولة عند هؤلاء الفلاحين.

شتيوان رجل من أطراف عشيرة العرارفة، لا يأبه بما يجري فيها، إنه يحيا حياة الصعلكة كما كان يعيشها صعاليك العرب وذؤبانها في الجاهلية، يتنقل من وادٍ إلى آخر، ويجعل من الأرض الوعرة مسكناً له، يتصيّد هذا، ويقطع الطريق على هذا، ولقد أولت الدولة اهتماماً بمثل هؤلاء في المرحلة الراهنة، إذ لا بد من القضاء على هذه الظاهرة كي يستقر مجتمع الدولة، مما دفع الفرسان الثلاثة للقدوم إلى عشيرة العرارفة، ظناً منهم أنهم ربما سلموهم إياه، في حقيقة الأمر العرارفة أنفسهم لا يعرفون لشتيوان سبيلاً، وهبْ أنهم يستطيعون الوصول إليه، فليس من المروءة في ذلك الحين أن يُسلموا أحد أبنائهم للدولة، فما زالت الدولة في عرفهم نظاماً صارماً جاء ليسحب فراش السلطة من تحت أقدام العشائر المتناثرة هنا وهناك.

كان لشتيوان أصدقاء يحذون حذوَهُ في هذا المضمار، ويلتقون كثيراً عند شعلة من النار يُذكيها أحدهم أسفل صخرة كبيرة في بطن وادٍ... أو تحت شجرة معمرة إلى جوار مجرى سيل أو نبع ماء، هكذا كانت حياته، وقلّما أتى صِنِفْحَة، وقلّما دخل القرى عموماً.

مضى أقل من شهر وها هم الخيالة يأتون من جديد، خيولهم تذرع الأرض وتثير سحاباً من الغبار وراءها، ثم توقفت الخيل بين البيوت الطينية في صِنِفْحَة... تكرر المشهد السابق نسخة أخرى ولكن في زمن آخر:

ـ إنت ما بتفهم يا أبو مفلح... قلنا ليكم بدنا شتيوان.

ـ والله يا سيدي ما بنعرف وين هو.

ـ لا بتعرفوا وما بدكم تسلموه.

كانت عبارات العسكري تلك مغلفة بالشدة والأنفة، تفوح منها رائحة سطوة جديدة لم يعرفها القرويون من قبل، ثم نزل الجندي عن فرسه، وقف أمام أحمد:

ـ أبو مفلح الدولة هسا مي زي زمان، بدكم اطَّلْعوا شتيوان غصباً عنكم، شتيوان مطلوب للدولة، ناس كثيرين مشتكين عليه، ولازم يتحاسب.

قال الجندي هذه العبارات بصيغة مستفزّة، وبطريقة لم تعهدها نفوس الفلاحين من قبل، ثم أدار ظهره للجميع، وامتطى فرسه وانطلق.

هذه المرة تمهّل الرجال قليلاً:

ـ شكلُهْ الوقت اللي جاي بختلف عن اللي راح.

ـ والله شكلُهْ هيك،

ولكن كيف سيصل العرارفة لشتيوان؟ وإذا وصلوا إليه فهم لن يسلموه للدولة، فقد كانت حميتهم تحول دون ذلك، صحيح أنهم يكرهون شتيوان، وربما توعّده بعضهم بالضرب أو حتى بالقتل، ولكن ليس هيّناً عليهم في ذلك الحين تسليم شخص ما للدولة، هي أعراف نشأت بسبب شدة التحام العشيرة ببعضها.

في الوقت الذي كان فيه العرارفة لا يهون عليهم تسليم شتيوان للدولة، كان شتيوان بعيداً عن المشهد، بل كان إذا ضاقت به الحال، وقلّت عنده الحيلة، تسلل ليلاً لبيوت

صِنِفْحَة عموماً والعرارفة خصوصاً ليسرق بعض الطعام أو المتاع فيبيعه ويستفيد من ثمنه، كان بعض العرارفة يعرفون أن السارق شتيوان، لكنهم يُغضّون الطرف عنه، ويصفحون عن سرقته تلك، بل كانوا يعتذرون عنه بقولهم: لولا أنه بحاجة ما سرق... ولكن بعد إصرار رجال الدولة على العرارفة بضرورة تسليم شتيوان ازداد غضب كبار رجال العشيرة عليه، فهو قد يؤثر على علاقتهم بالدولة الجديدة الناشئة، وقد يُحرِج هؤلاء الكبار مع السلطة الصارمة في هذه الأيام.

لم يتوقف شتيوان عن تقصّد بيوت العرارفة بالسلب، ففي كل يوم يشكو أحدهم من فقدان حمل صغير، أو بضع كراتٍ من الجميد، أو ربما فراشاً أو بساطاً، وكان شتيوان المتهم الأول دون تأكد أهو السارق أم لا؟ ثم وصل البلل إلى ذقن أحمد نفسه، إنه يفقد صفيحة من السمن البلدي، هي جُل ما جمعوه في أشهر الربيع الأولى، هنالك استشاط غضباً، وتطاير الشرر من عينيه، كيف يجرؤ شتيوان على سرقته هو.

أومأ بعض من كان حول أحمد باحتمال أن يكون السارق شخصاً آخر غير شتيوان، لكن أحمد كان مصرّاً على موقفه بأن السارق شتيوان نفسه، وكان محقاً في ذلك، ثم قال:

ـ اللي منكم بقدر يوصل لشتيوان الكلام يقول ليه: يا برَجِعْ تنكة السمن، يا والله إني لَدَشِّر تاري مع عليان واذبح شتيوان.

لم يكن هذا التهديد من أحمد وليد هذه اللحظة، بل كان نتيجة لاحتقانات سابقة، فشتيوان أقلق مكانتهم مع الدولة، وهو كذلك طمِع كثيراً في السلب والنهب خصوصاً من عشيرته، والتساهل معه زاد من جرأته، ولا بد من وضع حدّ لهذه الجُرأة، موقف أحمد ذاك كان مشفوعاً بتأييد علي وعدد من رجال العرارفة من حوله.

أيام قليلة ووقفت تلك الخيول مرة أخرى بين تلك البيوت الطينية في صِنِفْحَة من جديد، هذه المرة كانت لهجة الجنود تزداد صرامة، بل هددوا أحمد وعلي بأنهم سيكون لهم تصرّف آخر إنْ هم لم يأتوهم بشتيوان... وفي الحقيقة كانت تلك هي المرة الأخيرة التي سيأتي بها هؤلاء الجند طالبين شتيوان، فهذا التهديد الصريح هي الورقة الأخيرة بأيدي هؤلاء الجنود، فهم يخشون أن تخرج الأمور عن نصابها، ويقعوا في دوّامة من المواجهة مع هؤلاء القرويين، إنهم ذوو نفوس جامحة كجموح خيلهم التي يركبونها، وزيادة الضغط عليهم قد يدفعهم للاقتراب من خط المواجهة.

أما العرارفة فقد زاد حقدهم على شتيوان، وامتلأت نفوسهم غضباً، فكيف لهذا المتشرد أن يزعزع مكانة العشيرة برمتها، هذا ما دفع علي ذات لحظة أن يقول:

ـ والله لو أشوف شتيوان أنا لأذبحه واخلص منه.

تطاولت أعناق تلك التهديدات والتوعّدات حتى وصلت أذنَي شتيوان، فراعه ذلك التهديد والوعيد، فصحيح أنه لا يأبه كثيراً بقربه من العشيرة، إلا أنه لا مفرّ له منها، ولا غنى له عنها، وأصبح يخشى على نفسه من أبناء عشيرته، هي صورة متكررة

لهؤلاء المتصعلكين منذ الجاهلية، ربما تساءل في نفسه مرة: هل من الممكن تدارك الأمور؟ أم أن الوقت قد فات؟

التهمت الأودية الوعرة شتيوان وغيره من هؤلاء المتشردين الذين لا يرغبون في تركها والابتعاد عنها، فرائحة دخان النار المختلط باحتراق النباتات البرية العطرية تحتلّ مكاناً في صدورهم، ذلك المكان لا يملؤه إلا تلك الرائحة، ومشاعر الحرية التي يعيشها هؤلاء المتشردون أقوى وأبعد من أن تقيدها القرية وبيوتها الطينية.

ذات مساء بعد أن استوت النار في موقدها، وتسلق ضوؤها شعاب تلك الأودية وصخورها الضخمة، ألقى شتيوان برغيف من الخبز في حجرها كي ينضج ثم يأكله يابساً... فاحت رائحة الخبز في ذلك الوادي، كانت تلك الرائحة بمثابة دعوة صريحة بالقدوم لكل الأنوف التي تصل إليها، ومن بين تلك الأنوف أنف زَعَل، الذي هو أحد أبناء الشعايلة الذي يعرف شتيوان معرفة جيدة، وكان كثير اللقاء به في شعاب تلك الأودية، كانت تربطه صداقة جيدة به، فقد عرف مكان شتيوان من رائحة الخبز، لحظات وكان عنده، حيّاه وسلّم عليه، جلس دون دعوة، ونظر إلى رغيف الخبز بين أحضان الجمر بشغف، ثم أخرج من حقيبة كانت تحت إبطه بضع ثمرات من البندورة، وحبة فلفل، ابتسم لها شتيوان ابتسامة أعرض من ضوء الصباح، فبعد أن كان رغيف الخبز يابساً ها هو بصحبة البندورة والفلفل، ثم أخرج إبريقاً صغيراً لصنع الشاي، لقد

أبهج منظره الأسود المصبوغ بلهيب النار نفْسَ شتيوان، فقد مرّ عليه عشرة أيام لم يذُق للشاي طعماً.

لحظات قليلة واستقر الخبز الساخن إلى جوار النار، كانت البندورة والفلفل إلى جواره، ثم فعلت الأفواه فعلتها بذلك الطعام، النهم الذي كان يأكل به شتيوان ألهاه عن سؤال زَعَل عن أي شيء أتى به، بل أنساه السؤال عن حاله وأيامه التي مضت، فقد كان الجوع يُكبّل عقله وفؤاده، ثم أتمّ شتيوان طعامه، وأحس أن برودة ما قد تسربت بين عظامه، اقترب من النار أكثر فأكثر... غليان إبريق الشاي الراقد في حِجْر تلك النار يُدندن الآن في عقله، ثم اكتمل إبريق الشاي ذاك، صبَّ لنفسه في كأس حديدي كان مع زَعَل، التفت له زَعَل واكتفى بابتسامة رقيقة لم تكد تظهر على محياه وسط ذلك الظلام الذي تغالبه ألسنة اللهب بضوئها... وبعد أن ارتشف شتيوان بضع رشفات من الشاي:

ـ كيف حالك يا زعل؟ وين كنت؟ زمان ما شفتك.

كاد زَعَل يضحك، ولكنه كتم تلك الضحكة، قال في نفسه: الآن تذكّرت يا شتيوان أن تسألني عن حالي، ثم قال:

ـ في هالبلاد، لا رحت ولا جيت.

ـ وش بتسوي هالأيام في حياتك؟

ـ والله لي حوالي أسبوع مع عليّان بروح وبجي معاه... يعني بتقدر إتقول إني بشتغل معاه.

سكت شتيوان لبرهة، ثم طالت تلك البرهة ولم يمزّق هيمنتها تلك إلا رشفات الشاي المتوالية التي كان يُطلقها شتيوان في سكون ذلك الليل، سرَح ذهن شتيوان بعيداً، ثم قطع عليه زَعَل سكتته:

ـ وين سرحان؟ أنا جاي أقعد وأسولف وإلا جاي أظلّ ساكت أنا واياك؟

ـ زَعَل... إنت بتحب عليان؟

ـ لا بحبه ولا بكرهه، لكن أنا زلمة بمشي ورا مصلحتي، وين ما تكون مصلحتي بروح ليها.

ـ طيّب... عندي ليك مصلحة.

ـ وِش هيْ؟

ـ وش رايك تدلنا على عليّان وبنعطيك اللي بدك إيّاه.

طال الصمت الذي خيّم على زَعَل حتى ظنّ شتيوان أنه لن يتكلم، ثم قال:

ـ اسمع يا شتيوان، بدلكو على عليان، بس بشرطين، الأول: لا تجيبوا سيرة عني، والثاني: بتعطوني بارودة جديدة.

ـ ابشر.

ـ أنا بكرة بدي أتعلل عند عليان، جاي عنده ثلاث عساكر من عمان، بدُهْ يعشيهم، ويناموا عنده، إذا بدكم تعالوا نلتقي عند الخربة، وبحطكم على راس عليان.

ـ اتفقنا.

لم يكن شتيوان يشك لحظة أن هذا الاتفاق بينه وبين زعل سيُفرح العرارفة من جهة، وسيكون شفيعاً له عندهم، حتى يُنهي ذلك الحقد بينه وبين عشيرته، أتمّ ليلته تلك في مكانه ذاك، ولمّا مزّق الفجر أستار الظلام مضى زَعَل قاصداً بيوت الشعايلة، في حين جمع شتيوان نفسه وقصد الأودية الوعرة التي ترتمي أسفل صِنِفْحَة، إنه يعلم علم اليقين أن فيها أناساً من العرارفة، فالخريف بدأ منذ أيام قليلة، وها هي قطعان الأغنام تسبق أهالي صِنِفْحَة باتجاه تلك الأودية بحثاً عن الدفء في الشتاء القادم، هو لا يريد الدخول إلى صِنِفْحَة حتى لا يسبق غضبُهُم كلامَهُ، ولا تُعطى له الفرصة لبيان ما جاء لأجله، فاختار أن يقصد هذه الأودية.

لما أقبل على تلك الأودية عرف عبد الرحمن وعيسى من بعيد... نظرا إليه، ولكنهما لم يعرفاه، فقد كان طيفاً في ذلك الفضاء الفسيح، ثم ما لبث ذلك الطيف أن اقترب، وأخذت ملامحه تتشكل في عيني عيسى وعبد الرحمن، وما هي إلا لحظات حتى عرفاه، بادراه السباب والشتم، فهما مُعبَّآن بالحقد عليه، لم يتفوّه بكلمة، وما إنْ فرغا من الشتم والسب حتى صمتا، فقد طابت نفسهما الآن بعد أن تفرّغ بعض ما فيها من الغِلّ:

ـ خلّصتوا شتايم وسب؟

ـ ما خلّصنا... وإنت يا سرّاق ليش جاي هانا؟

ـ اسمعوا يا عيال، عندي ليكم خبر، إذا ما عجبكم بروح من هانا ولا من شاف ولا من درى.

ـ قول...

ـ في واحد من الشعايلة بعرفه، اتفقت أنا وإياه على راس عليان، مقابل بارودة جديدة.

سدّت هذه الكلمات فم عبد الرحمن وعيسى، إنه عرض لا يُضيّع، الثأر الذي يقض مضاجعهما يأتي إليهما برجليه، وقتل عليان صار بمسافة أقرب من رصاصة واحدة:

ـ فهمنا أكثر شو السلافة؟

ـ اسمعوا، إذا موافقين تعطوا الزلمة بارودة بتروحوا الليلة على الخربة اللي تحت بيوت الشعايلة، وبلاقيكو هوْ بعد العشاء، بتعطوه البارودة، وبحطكم على راس عليان.

ـ إحنا موافقين، الليلة الموعد.

انطلق عيسى كالبرق صوب صِنِفْحَة، دخلها متظاهراً بأنه جاء ليتزوّد ببعض الطحين، فهو لا يريد لأحد أن يعلم بهذه الخطة، فهم غير مستعدين لمزيد من الوقت الضائع في طلب عليّان... دخل البيت على أحمد ابن عمّه، ثم قصّ عليه الخبر، كانت الفرحة أشدّ من أن توصف، وتقاسيم الأمل الذي أحدق بوجه أحمد لم تُرَ من

قبل في وجهه ذاك، حمل بندقيته، وبندقية أخرى لزَعَل، في حين حمل عيسى بندقيتين له ولعبد الرحمن، ثم تسللا خارج صِنِفْحَة.

ها هو الليل يفرض عباءته السوداء من جديد على تلك الجبال والأودية، وها هو القمر يرتقي أدراجه في صفحة السماء لينير للسائرين ليلاً طريقهم، الرجال الأربعة أحمد وعبد الرحمن وعيسى وشتيوان ينتقلون من وادٍ لآخر دون أن يحس بهم أحد، لا حاجة اليوم كذلك للخيل، فأصوات حوافرها تخبّر آذان المتربصين بمكانهم، ثم أطلّت الخربة من بعيد، رمقها أحمد، فأحس أنها تناديه، وتطلب منه أن يقترب، ثم وقفوا في وسطها... لم يكن صاحب الوعد موجوداً، ربما ظنّ بعضهم أن الرجل قد أخلف وعده، غير أن شتيوان كان مطمئناً، فهو يعرف زَعَل معرفة جيدة، ويعلم يقيناً أنه لن يخلف الوعد.

كانت اللحظات التي مكثها أولئك الرجال طويلة جداً على قصرها، ثم أصغت آذانهم لخطى متمهلة تقترب منهم، هبّ شتيوان أمامهم وقال:

ـ الجمر حامي.

كانت تلك العبارة بمثابة كلمة السر بينه وبين زعل... تمهّلت الخطوات قليلاً، ثم أحسّ الجميع أن صاحبها قد حوّل وجهته واتجه ناحيتهم، ثم جاء الصوت المُبهج:

ـ حامي حامي.

ابتسم شتيوان، فابتسم أحمد وعيسى وعبد الرحمن من بعده، فالليل لا يتمكن من تغطية ابتسامتهم تلك ما دام القمر يفضحها، وهبْ أن القمر ليس موجوداً، فضياء الفرحة التي ملأت صدورهم أشدّ إضاءة من ذلك القمر.

- جاهزين.

رد شتيوان وتابعه أحمد ومن معه:

- جاهزين... جاهزين.

عقب شتيوان بقوله:

- عند هانا أنا خلّص دوري.

استمهلَ أحمدُ زعلاً:

- اسمع يا خوي، هذي برودتك.

أخذ زعل البندقية دون أن يعلّق، فكُل هذه المخاطرة لأجل هذه البندقية، ثم أدار ظهره، مشى خطوة وهمّ بالثانية، إلا أنه استدار بسرعة، وقبل أن يحرّك الرجال الثلاثة أقدامهم:

- استنّوا.

ربما تسلل بعض الخوف لقلوب الرجال الثلاثة، ولكنهم مصممون على الذهاب، ولن يمنعهم شيء، لم ينطقوا بكلمة، اقترب منهم زَعَل ووضع يده على صدر كل منهم، إنه يجِس قلوبهم، ويتحسس نبضهم، ولمّا وضع يده على قلب عيسى:

ـ إنتَ خلّيك لا تروح.

ـ ليش؟!!!

ـ إنتَ خايف، وما لازم تروح، اللي بروحوا هذولا الاثنين بس.

اعترض عيسى على هذا الكلام، ورفض مستنكراً هذا القرار، إذ كيف له أن يتراجع بعد أن وصل للخطوة الأخيرة؟ غير أن هذا الاعتراض لم يجد قبولاً، فكلام الرجل واضح... نظر أحمد إلى عيسى نظرة فيها شيء من الصرامة، فاقتنع عيسى مرغماً، فالوقت ليس وقت جدال أو اعتراض.

سار أحمد وعبد الرحمن خلف زَعَل بكل بطء وحذر، إنهم لا يريدون للحصى التي تصطكّ تحت أقدامهم أن تقول ما لا يقال، أو تجذب إليها الآذان، وبعد مدة من السير توقف زعل، فتوقف أحمد وعبد الرحمن، ثم استدار زعل إليهم:

ـ اسمعوا... عليان والعساكر الثلاثة نايمين على سطح الدار.

ثم أشار زعل لبيت طيني يختفي ثلثاه تحت الطريق، ولم يبقَ منه سوى الثلث الأعلى، وهو على بعد أمتار قليلة منهم، ثم تابع زَعَل قوله:

ـ هَيْ أنا غطّيت العساكر وخليت وجه اللحاف الأحمر هوْ اللي فوق، وعليّان خليت وجه اللحاف اللي فوق أبيض، وحطّيت عباة سودة فوق عليان، الحين بعد ما أروح واختفي بتسوّوا اللي عليكو، ماشي.

أومأ أحمد وعبد الرحمن بالموافقة، ثم أدار زَعَل ظهره تاركاً المكان، وما إنْ غاب في بطون تلك الدروب الضيقة بين البيوت حتى انطلقا، كانا يحسبان خطواتهم حساباً دقيقاً، فليس هناك مجال للخطأ مهما صغُر، ثم ارتقى أحمد فوق سقف ذلك البيت، ثم تبعه عبد الرحمن... النظرة الأولى لذلك البيت كشفت عن كل ما وُصِف لهم، الرجال الأربعة ينامون هاهنا، والغطاء الأبيض ينفرد به عليان دون غيره.

وجد عليان رائحة غريبة تملأ أنفه، وتهيمن على الجو من حوله... إنها رائحة مرت عليه من قبل، كأنه يعرفها، هي رائحة الموت التي اشتمّها قبل عشرين سنة لمّا وقف فوق جثة أخيه الباردة، لم يقدر عليّان على فهم ما يجول في نفسه، وربما ظنّ أن هذا السكون من حوله يُخبئ له خطْباً ما... ولكنه آثر السكون في مكانه... جذب الغطاء إليه حتى غطّى رأسه... ثم انكشف الغطاء عن وجهه فجأة... لم يرَ أمام عينيه سوى بندقيتين، أيقن في نفسه أنها بنادق العرارفة... لم يحرّك ساكناً، ولم يقل شيئاً، وإنما استسلم لسطوة الموت المُحدِق به... وربما أنه أراد الخلاص من هذا الثأر... ويطوي صفحة حياته التي نغَّصَها الفرار والتربّص والألم.

كان أحمد وعبد الرحمن قد صوّبا بندقيتهما على رأس عليان... ثم مزّقت رصاصة سكون ذلك الليل الخريفي، واستقرّت في جبهته تاركة وراءها ومضة من الجمر الأحمر الملتهب لم يلبث أن انطفأ... ثم تلاها طيف من الدخان حمل معه بعضاً من روحِ عليّان إلى السماء... ثم توالت الطلقات من البندقيتين، كان لا بد أن يسهم كل رجل

بقتله حتى يشفي غليله منه... جسده الكهلُ يرتعد وينتفض إثر كل طلقة تهشم رأسه أو تمزّق صدرَه... ثم ما لبث أن هدأ عقب الطلقتين الأخيرتين... في تلك اللحظة كان الموت قد جَثَم على صدرِه، وأسكتَ جوارحَه.

أفاق الجنود على صوت الرصاص، كشف أحدهم الغطاء عن وجهه، وقبل أن يتفوه بكلمة، انتهره أحمد:

ـ نام.... نام

عرف الجندي وكذلك الآخران أنهم في مكان لتصفية حساب ما، ثم غطّى الجندي رأسه وسكن، إنه ليس مستعداً لخسارة حياته. وليمُت من يموت، وليحيَ من حيّ.

لمّا سمع عيسى أصوات الرصاص الذي مزّق سكون ذلك الليل أشهر بندقيته إلى السماء، تخيّل صورة عليان أمامه، ثم أطلق رصاصتين في الجو، أراد أن يشفي غليله، ولا يكون هامداً ساكناً وثأره يُسحب من بين يديه.

ها هو الرصاص يصمت ويهدأ، وها هي أصوات الشعايلة تولد محشرجة من سكون ذلك الليل، قفز أحمد وعبد الرحمن من مكانهما ذاك... وسارا بضع خطوات، ثم استوقف أحمد عبد الرحمن:

ـ اسمع خلينا نشوف لينا مكان نتخبى فيه عشان نتأكد إنو اللي ذبحناه عليان.

إلى هذا الحد بلغ الأمر من أحمد، فرغم أنه مزّق جسد عليان يريد أن يتأكد من موته، وفي لحظة خاطفة استطاع أن يلحظ تنوراً – طابوناً – قريباً منهم، دخلا فيه،

وصمتا، كانت الأقدام المسرعة تمر من أمامهما دون أن يعلم أحد أنهما داخل هذا التنور الصغير، ثم سمعا أخت عليان تنوح وتقول:

- يا ويلي ذبحوك يا خوي يا عليان... يا ويلي.

تبسم الرجلان ابتسامة عريضة دون أن يتمكن أحدهما من رؤية ابتسامة الآخر، فهذا الصوت الباكي أسعد قلوبهم... اللحظات السعيدة المُبْهِجة في بعض القلوب، حزينة مؤلمة في قلوب أخرى.

تسلل أحمد وعبد الرحمن من التنّور، خبّآ بندقيتيهما تحت ثيابهما.. سارا بين الجموع المتسائلة المتناثرة، ربما تساءلوا مثلهم، وسألوا من حولهم ما الخَطْب؟ إنه نوع من التمويه، لم يفطن لهم أحد، انسحبا شيئاً فشيئاً، ولمّا ابتعدا عن المكان أطلقت السعادة أقدامهما، وانطلقا بسرعة خاطفة.. مرّا بالخربة، وبشّرا عيسى بتمام الخطة، ومقتل عليان، كاد أن يطير فرحاً، ثم انطلق الثلاثة باتجاه صِنِفْحَة.

مع خطوط الفجر الأولى كان خبر مقتل عليان قد اقتحم بيوت صِنِفْحَة الطينية بيتاً بيتاً... وكانت السعادة قد ملأت قلوب العرارفة قلباً قلباً، إنه انتظار طويل، عشرون سنة من المطاردة والتربص ها هي تنتهي الآن، وها هو الموت يطوي صفحة عليان... ارتسمت ابتسامة مترددة على محيا أم أحمد، كان لا بد من الابتسام في تلك اللحظة السعيدة رغم ما يسكن في أعماقها من الحزن والأسى، هي الآن عجوز لا تقوى على الحراك إلا بمعونة العصا.

لمّا انبلج الصبح، وطرد نور الشمس ظلام الليل، كان أحمد واقفاً بقبور العرارفة الذين قضوا منذ سنوات.. أخبرهم أن ثأرهم قد تحقق، وأنه قد قتل عليان، كان يظنّ في قرارة نفسه أن أرواحهم التي أزهقت منذ عشرين عاماً تقريباً لم ترتَح إلا البارحة، وأن رقدتهم تحت الثرى قلقة مضطربة لم تسكن إلا قبل بضع ساعات، ثم أدار ظهره وعاد للقرية... إذ لا يزال هناك متسع من الوقت لمزيد من إظهار البهجة والسعادة، كما أن لدى بعض الشعايلة مزيداً من الوقت للحزن والبكاء.

لمّا حلّ المساء، جلس أحمد إلى جوار النار المتقدة، خُيِّل له وهو ينظر إليها أنها عذارى نورانية تتراقص فرحاً بتحقيق هذا الثأر، إنها رقصة إيقاعية تداعب أعماق نفسه، ثم وقفت أم مفلح – زوجته – إلى جواره، بيدها دلّة القهوة، وبالأخرى فنجان، صبّت فنجاناً من القهوة، ثم مدت به لأحمد:

ـ اشرب يا أبو مفلح... تسلم يمينك.

أخذ فنجان القهوة منها دون أن يتكلّم، ارتشف منه رشفة، ثم أخرج من ذاكرته صورة مُغبِرة مضى عليها ما يزيد على عشرين عاماً، إنها صورة سالم المربوط بجذع الزيتونة... صورة باهتة مشوشة الألوان، هي بداية ذلك الثأر... ثم رقصت النار رقصة جديدة، وارتفع الفنجان لثغر أحمد مرة أخرى... صورة الحاج مفلح وقد جلس ساكناً مطمئناً إلى جواره ينتظر الجبيرة تنتهي، ثم يعود أدراجه لبيته وقريته، ولكن الموت اقتحم سكونه وبدد طمأنينته... النار تغير رقصتها من جديد، والقهوة تندفع إلى شفتي

أحمد اندفاعاً... ثم صورة مُغبِرة أخرى، هي صورة سالم وقد همّ لأخذ المحراث، إلا أن رصاصة أحمد أسكنته الأرض، مع تلك الصورة فاحت رائحة الموت في أنف أحمد كما عهدها في ذلك اليوم، النار تغيّر رقصتها، وفنجان القهوة يُسرع للنفاد، ثم أخرجت الذاكرة صورة أخرى، جُثث أبناء عمه الذين قضوا... وتبادل الطلقات بينه وبين عليان... ثم خففت النار من رقصتها، وانزوى فنجان القهوة إلى جوارها، ولكن الذاكرة أخرجت صورة جديدة عفا عليها الزمن، هي خيمة عليان خاوية منه، كاد أحمد أن يمد يده باحثاً عنه في تلك اللحظة، ولكنه انتبه... عادت النار لترقص رقصة إيقاعية متسارعة، وصورة عليان وقد تمدد قتيلاً أمام ناظري أحمد تسعد فؤاده، وتُحَقِّقُ مبتغاه في هذه الحياة.

بعد أيام قليلة أفاق أحمد على حمى أصابته، إنها حُمى غريبة لم يعهدها.. عرف أنها حمى الموت، فقد قطع عهداً بينه وبين ربه أنه إذا مكّنه من عليان ألّا يُبقيه بعده شهراً واحداً، لا أحد سواه يعلم بهذا العهد... كل يوم يأتي يذوي فيه أحمد أكثر فأكثر، وكل ساعة تمر تأخذ نَفَساً آخر من أنفاسه المعدودة في هذه الحياة.

دواب الفلاحين تسرع الخطى باتجاه الأودية الوعرة المطلّة على غور الأردن هاربة من الشتاء المقبل... هم قلة الذين أبطؤوا المسير، أبطأهم مرضُ أحمد، ثم قرروا أن يحملوه معهم على ظهر الدابة وينزلوا به إلى تلك الأودية... ليلتها دعا أحمد ربه ألا يميته بعيداً عن أبيه وأخيه وأبناء عمومته، إنه عاش لأجلهم، ويودّ الموت إلى

جوارهم... كانت تلك الليلة التي أتم فيها عليان شهراً كاملاً تحت الثرى... لمّا تفجّر ضوء الفجر تفجّر معه نحيب أم مفلح باكية ومنادية بمن تبقى من أبناء العرارفة... أحمد أبو مفلح قد سلّم الروح لباريها، وها هو الآن جثة هامدة، لقد استجاب له الله دعوته مرة أخرى، وأماته في المكان الذي أراد.

تجمّع الرجال في بيت أحمد وهو مُسجّىً في داره تلك... غسّلوه وكفّنوه ثم صلوا عليه، وحُمِل إلى قبره في جوار أبيه وأخيه وأبناء عمومته، هم راقدون منذ عشرين سنة ويزيد، ولكنهم حفظوا له مكان قبره ليلحق بهم يوماً ما.

جذوة الثأر تذوي وتذوي... صِنِفْحة التي كانت شاهدة على إذكائها.... ها هي اليوم شاهدة أيضاً على انطفائها، والنفوس التي اشتعلت بذلك الثأر وتشبّعت بريح الانتقام تترجّلُ تاركةً مسرح الحياة وراءها، ومضى الطالبُ والمطلوبُ، لم يبقَ في القوم من يتعطش لدماءٍ جديدة، ربما رضيَ كل طرف بما آلت إليه الأمور وجرت به المقادير، فخمد الثأر، وهدأت النفوس بعد سنوات طويلة من الغليان والتربُّص.

هؤلاء قوم طوى الزمن صفحتهم، وقضى الموت على هيبتهم وسطوتهم، ولم يبقَ لنا سوى الذكرى تعشّشُ في عقولنا وأفئدتنا، تفيق حيناً وتعود إلى سباتها أحياناً أخرى.